الباب الأول

طيئ ونسب أبي تمام فيها

١ — اشتقاق الاسم

يقول ابن دريد فى كتابه الجمهرة فى اللغة[1]، فى « طوَ » : « قال الخليل رحمه الله : اشتقاق طيئ من الطاء وواو وهمزة ، أو ياء وهمزة ، كأن إحدى الياءين فى طيئ محوّلة عنده عن الواو » . وفى نسخة منها أشار إليها الناشر فى الهامش بحرف (هـ) ما نصه : « قال الخليل : اشتقاق طيئ من طاء وهمزة وياء الخ . فقلبت الواو ياء ، وأدغمت فى الياء الياء ، مثل طويت الثوب طيا » . وفى نسخة بانكيبور من الجمهرة فى « ط ى ى » : « من لم يهمز طيئا قال هكذا : طيّ كما ترى » .

فالكلمة عند الخليل مشتقة من طوأ أو من طيأ ، فى النسخة الأولى ؛ ومن طأى أو من طأو ، فى النسخة الثانية ؛ ومن ط ى ى فى النسخة الثالثة .

وفى العبارة إجمال ، ولكن الذى يفهم من قوله « فقلبت الواو ياء...الخ » ، هو أن طيئ أصلها طيوئ أو طويئ ، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمتا .

وفى القاموس : الطاءة كالطاعة : الإبعاد فى المرعى ، ومنه طيئ أبو قبيلة ، أو من طاء يطوء إذا ذهب وجاء ، والنسبة طائىّ ، والقياس كطيِّعىّ ، حذفوا الياء الثانية ، فبقى طيئىّ ، فقلبوا الياء الساكنة ألفا . وطاء فى الأرض يطاء : ذهب ، أو أبعد فى ذهابه .

وهى عند ابن الكلبى ، كما ينقلها عنه صاحب الجمهرة ، وكما يرى صاحب الأغانى وياقوت ، مشتقة من طوى ، بمعنى بنى البئر بالحجارة ، فيقولون ، على اختلاف فى العبارة ، واتفاق فى الدلالة : إنه إنما سمى طيئا لطيه المناهل ؛ ولكن ابن دريد — على حدّ تعبيره — لا يعرف هذا الوجه من الاشتقاق .

والأفعال الثلاثة طاء يطاء ، وطاء يطوء ، وطوى يطوى ، تدور كلها حول معنى أصلى واحد ، هو الحركة .

---

(١) انظر كتاب الجمهرة لابن دريد ، طبعة حيدرأباد بالهند سنة ١٣٤٤ — ١٣٤٥ هـ .

وفى دائرة المعارف الإسلامية أن « طَيّابى » معناها العرب ، والمسلمون عامّة[1] . فأما الشطر الأخير من العبارة ، فخطأ شاع وظل إلى قريب ، فقد كان المسلمون يسمون العرب ، ومتى أطلق أحد الاسمين ، فهم منه المعنى المراد بالآخر ، فلا غرابة فى أن يطلق السُّريانيون اسم العرب على المسلمين جميعا ، والذى يهمنا هنا هو إطلاق هذا اللفظ ، الذى يقرب من لفظة «طائى» على العرب جميعا .

فإما أن يكون ذلك أتى من ملاصقة طيئ للسريان حيث كانوا يقيمون ، فقد كانت طيئ تقيم على أطراف العراق ، وإن كان هذا يضعّفه أن اللخميين والغسانيين كانوا ألصق بالسريان منذ زمن قديم . وإما أن يكون اسم طيئ أطلق أوّلا على القبيلة ، ثم غلب على العرب عند السريان ، لشدة الصلة ، ولتبين معنى العروبة فيهم .

وهناك شيء آخر تجب ملاحظته ، ذلك هو أن طاء يطوء ، وطاء يطاء ، وطوى يطوى ، تشترك جميعا فى المعنى الأصلى مع عرِب وعبر ، وهما أصل كلمة العرب .

ففى القاموس : أن العَرْب هو النشاط ، ويحرّك ، وعرِب كفرح : نشط ، وعرب النهر : غمر ، والعَرَبة محركة : النهر الشديد الجرى .

فالمعانى قائمة كلها حول الحركة ، وهو ما يتبين تماما فى حياة العرب ، وما يوجد فى أصول كلمة طيئ .

فلم تسم العرب عربا بالصدفة ، بل لأن حياتهم ونهجهم فى العيش ، كان يدعوهم فى لغتهم إلى تسمية أنفسهم بالعرب ، مشتقة من عرب بمعنى الحركة ، ويدعو غيرهم إلى تسميتهم كذلك . فطائى وعربى لهما مؤدّى واحد .

وليس معنى ذلك أن طيئا يجب ألا يعتبر نسبا ما دام معنى عاما ، فإن الاشتراك فى المعنى العام لا يخرج التسمية الخاصة عن مدلولها الضيق ، الذى تنوسى فيه الأصل ، كما هو ظاهر فى كل أسماء الأعلام المنقولة . وسنرى فيما بعد أن حياة طيئ كانت حركة دائمة ، ونشاطا لا ينقطع .

٢ — أصل طيئ

لا خلاف بين النسابين فى إرجاع طيئ إلى اليمن ، فهى عندهم جميعا تنتهى إلى قحطان ، ولكن سلسلة النسب تضطرب ، فتنقص حينا وتزيد حينا ، والغريب أن الزيادة ليست فى الآباء البعيدين ، وإنما هى فى القريبين شيئا .

(1) "En syriaque Taiyàyé désigne les arabes et les muselmans en général."

والسلسلة الغالبة هى : طيئ ، واسمه جُلْهُمة ، بن أُدَد بن زيد بن يشجُب بن عَريب بن زيد ابن كهلان. وعند هذا يقف ياقوت[١]، ويتعدّاه ابن حزم[٢] إلى آخر هو سبأ ، ثم يجيء المقريزى[٣] فيسير سيرة السابقين فى سرد النسب ، إلا أنه يسقط زيدا فيما بين عريب وكهلان، ويصل السلسلة بقحطان، فيقول : كهلان بن سبأ بن يشجب بن قحطان . أما فى سلسلتى الأغانى والعقد الفريد، فاضطراب يقتضى حذف قبائل كاملة من عمود النسب الطائى .

فالرواية فى الأغانى أن جُلهمة هو ابن أدد بن مذحج بن زيد بن يشجب بن عريب بن مالك ابن كهلان[٤] . ففيها مالك بدل زيد وفيها أن مذحجا جدّ طيئ . أما العقد فيرى أن طيا أخو مذحج وينقل عن ابن الكلبي أنه قال إنه هو مذحج أيضا ، ثم يسير فى السلسلة حتى كهلان ، كما رأينا فى ابن حزم .

أما ابن دريد فى كتابه « الاشتقاق » فيجعل جُلهمة (وهو طيئ) ومالكا والأشعر إخوة، ويجعلهم أبناء زيد[٥] بن كهلان ؛ ولكنه يعود فى الكلام على مذحج فيقول[٦] : إن مذحجا ولد مالك ابن أُدد ؛ ويظهر أنه أسقط فى العبارة الأولى أدد .

وعندى أن عبارة الأغانى والعقد الفريد ليستا شيئا بجانب إجماع النسابين على جعل مذحج قبيلا قائما بذاته، وقرب إجماعهم على جعل مذحج أخا طيئ . وإنما أردت بهذا التطويل أن أعرض صورة كاملة لنسب طيئ فى أمانة . وعندى أن هذا الاضطراب يرجع أحيانا إلى تسمى الواحد باسمين، كما يذكر صاحب الاشتقاق أن سبأ كان يسمى عبد شمس أيضا. فقد يوضع سبأ فى رواية، وعبد شمس فى أخرى، ثم يجيء ثالث متأخر فيخلط بين الاثنين، جاعلهما أبوين ... ولا أرى أن شيئا هنا يقع علينا من هذا الاضطراب، فإن طيئا عند الجميع ترجع إلى اليمن ، أى إلى ذلك القبيل من العرب الضارب فى الأرض ، يقطعها من الجنوب إلى الشمال ، والمنتشر فى أقطار جزيرة العرب انتشارا يدعو إلى الدهشة ، والحاكم على أهم أقطارها ، وأغنى بقاعها ، والذى امتاز بأن كان منه ملوكها فى أيام مدنيتها الأولى، قبل الإسلام، والمعدود أصيلا فى عربيته .

---

(١) معجم البلدان مادة أجا .
(٢) ابن حزم : جمهرة الأنساب، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٩ ش .
(٣) المقريزى : كتاب البيان والإعراب، عما بأرض مصر من الأعراب، طبعة مطبعة المعارف سنة ١٩١٦ م .
(٤) ج ١٦ ص ٤٦ طبعة الساسى .
(٥) ابن دريد، كتاب الاشتقاق ص ٢١٨
(٦) المصدر السابق ص ٢٣٧

٣ — موطن طيئ

كانت طيئ تنزل[1] « الجوف » من أرض اليمن ، وهي اليوم محلة هَمْدان ومراد ، وكان سيدهم يومئذ أسامة بن لؤى بن الغوث بن طيئ ، وكان الوادى مَسبعة ، وهم قليل عددهم . فجعل ينتابهم بعير فى زمن الخريف ، يضرب فى إبلهم ولا يدرون أين يذهب ، إلا أنهم لا يرونه إلى قابل . وكانت الأزد قد خرجت من اليمن أيام سيل العرِم ، فاستوحشت طيئ لذلك ، وقالوا : قد ظعن إخواننا ، وساروا الى الأرياف . فلما هموا بالظعن قالوا لأسامة : إن هذا البعير الذى يأتينا إنما يأتينا من بلد رِيف وخِصب ، وإنا لنرى فى بعره النوى ؛ فلو أنا نتعهده عند انصرافه ، فشخصنا معه ، لعلنا نصيب مكانا خيرا من مكاننا . فلما انصرف تبعه أسامة بن لؤى بن الغوث ، وحيّة بن الحارث بن فُطْرة ابن طيئ ، حتى أدخلهما باب أجا ، فوقفا من الخصب والخير على ما أعجبهما ... وارتحلت طيئ بجملتها إلى الجبلين ، وجعل أسامة بن لؤى يقول :

اجعلْ ظُرَيبا لحبيب يُنمَى لكل قـوم مُصْبَح ومُمْسَى

وظريب : اسم الموضع الذى كانوا ينزلون فيه قبل الجبلين . قال : فهجمت طيئ على النخل بالشعاب على مواشٍ كثيرة ، وإذا هم برجل فى شِعب من تلك الشعاب ، وهو الأسود بن غفار ، (وهو البقية الباقية من جديس ، بعد أن فتك بهم حسان تبع فى اليمامة ، والحكاية مذكورة فى الأغانى[2]) ، فهالهم ما رأوا من عظم خَلقِه وتخوّفوه ، فنزلوا ناحية من الأرض فسبروها ، فلم يروا بها أحدا غيره . ثم ندب أسامة بن لؤىّ ابنه الغوث لقتل الأسود ، فتغفله الغوث ، ثم رماه بسهم فقتله ، وأقامت طيئ بين الجبلين .

هذه رواية الأغانى مع زيادات قليلة لا تمس جوهر الموضوع .

وفى رواية أخرى لياقوت : أن طيئا نفسه هو الذى انتقل عن موطنه ، فيما بين اليمن وتهامة ، سائرا بعد سيل العرم مع أعمامه ، فوقعت بينه وبينهم ملاحاة ، ففارقهم طيئ ، وسار نحو الحجاز بأهله وماله ، يتتبع مواقع القطر ... وأوغل طيئ بأرض الحجاز ، وكان له بعير يشرد فى كل سنة عن إبله ، ويغيب ثلاثة أشهر ، ثم يعود إليه وقد عبِل وسمِن ، فقال لابنه عمرو : تفقد يا بنى هذا الجمل ... الخ ،

---

(١) ياقوت فى مادة أجا ، وفى الأغانى ج ١٠ ص ٤٧ ولكنه يسميها الجرف .

(٢) ج ١٠ ص ٤٦ وما بعدها .

حتى إذا نزلت طيئ الجبلين، وجدوا فيهما شيخا عظيما جسيما، مديد القامة على خَلْق العادِيين، ومعه آمرأة على خِلقته، يقال لها سلمى، وهى آمرأته، فأقام طيئ بإبله وولده بالجبلين، فلم يلبث الشيخ والعجوز إلا قليلا حتى هلكا، وخلص المكان لطيئ، فولده به الى هـذه الغاية. قالوا: وسألت العجوز طيئا ممن هو؟ فقال طيئ:

إنّا من القـوم اليمانينا إن كنتِ عن ذلكِ تسألينا الخ

ويقولون: إنهـا أوّل شعر قيل فى طيئ، ويقولون: إن لغة طيئ هى لغة هـذا الشيخ الصحراوى وامرأته.

وهناك رواية ثالثة تتفق مع هذه فى أن طيئا كان سـيد أهله إلى هـذه البقعة، ونازلها بهم. وتتفق مع الأولى فى أنه وجد الأسود بن غفار فيها، فقامت بينه وبينهم مشادّة، أدّت بهم إلى تحديد موعد للاقتتال؛ فلما جاء الموعد انتدب طيئ ابنه جندب[1] بن خارجة بن فُطرة بن طيئ، وأمه جَديلة من حِمْيَر، لقتال الأسـود، فامتنع. فقال طيئ لعمرو بن الغوث بن طيئ: فعليك ياعمـرو الرجل فقاتله، فامتنع وقال شعرا منه:

وإذا تكون كَرِيهة أدْعَى لهـا وإذا يُحاس الحيسُ يُدْعَى جندبُ[2]

فقال طيئ: يابنى إنها أكرم دار فى العرب. فقال عمرو: لن أفعـل إلا على شرط ألا يكون لبنى جديلة فى الجبلين نصيب. فقال طيئ: لك شرطك ... الخ.

وتفاصيل الرواية — ولم أذكرها هنا — تلقَى اعتراضا ونقدا قاسيا ممن يدعى عبيد الله الفقير إليه. ويظنى أن هذه الرواية الأخيرة إنمـا خلقت أخيرا، لتبرير طرد جديلة من الجبلين، حين طردت منهما فى حرب الفساد، كما سيجىء ذلك بعد.

أما ابن خلدون[3] — فكما عهـدناه — لا يعبأ بهذه القصص التى تشـبه الأساطير أكثر مما تشبه الحقائق، فهـو يقول: «وأما بنو طيئ بن أُدد فكانوا باليمن، وخرجوا منه على أثر الأزد إلى الحجاز، ونزلوا فَيْد وسميراء فى جوار بنى أسد، ثم غلبوهم على أجأ وسَلْمَى، وهما جبلان من بلادهم، فاستقرّوا بهما، وافترقوا لأوّل الإسلام فى الفتوحات».

وهـذا الأخير أشبه بالحق والتاريخ، وإن ضاع علينا فيه تحديد تاريخ نزول طيئ تحديدا تقريبيا بالجبلين. وقد عزّ هذا على دى برسفال صاحب «تاريخ العرب قبل الإسلام»، وفى أثناء

(١) يلاحظ أن هنا بين جندب وطيئ ثلاثة آباء.
(٢) ويقولون إنه أوّل شعر بعد شعر طيئ السابق فيهم.
(٣) ج ٢ ص ٢٥٤

زمن محمد » فأبى إلا أن يستعين بالروايتين معا . فاستخدم فى تحديد زمن هجرة طيئ إلى الجبلين، الرواية التى تقول إنهم هاجروا وعلى رأسهم أسامة بن لؤى بن الغوث بن طيئ ، وصرف النظر عن الروايتين الأخريين وغيرهما .

فقال إن أسامة[1] هذا، حفيد الغوث، يعادل فى السن حفيدا آخر للغوث ، هو نبهان، الجد الحادى عشر من أجداد زيد الخيل. وعلى ذلك يكون قد مر على طيئ فى الجبلين أيام إسلام زيد الخيل أحد عشر جيلا، فمولد نبهان كان على حسابه (وأسامة معه) حول سنة ٢٠٧ م، وكان أسامة رجلا إذ ذاك ، فيكون تاريخ نزولهم الجبلين فيما بين سنتى ٢٤٥ و ٢٥٠ م . فكأنه جعل للجيل الواحد أربعة وعشرين عاما، وهو يتتبع سلسلة أخرى تقوده إلى النتيجة عينها عن طريق حاتم الطائى. وهذا جائز لو أن هذه الرواية مقطوع بصحتها[2]. ولكنا كما ترى لانستطيع الجزم بصحة إحدى هذه الروايات. وإن ما حولها من الأساطير ليبعث على الشك فى صحتها جميعا ، وخصوصا إذا جُمعت هذه الروايات إلى رواية ابن خلدون السابقة .

وخلاصة المفهوم من هذه الروايات جميعا : أن طيئا يمنية، نزلت بالجبلين قبل الإسلام بزمن ليس بالطويل جدّا، وغلبت عليهما أسدا أو غير أسد ، وأقامت فيهما واستقرت، وحمتهما حماية تركت لها ملكيتهما حقا مقررا ، دعا الناس جميعا فى تلك الأزمنة السحيقة إلى تسميتها جبلى طيئ .

٤ — جبـــلا طيئ

يقـول ياقوت فى مادة أجا : قال الزمخشرى : أجا وسَلمى : جبلان عن يسار سَميراء ، وقد رأيتهما، شاهقان ... وقال أبو عُبيد السَّكونى : أجا أحد جبلى طيئ، وهو غربى فَيْد، وبينهما مسير ليلتين، وفيه قرى كثيرة . قال : ومنازل طيئ فى الجبلين عشر ليال، من دون فيـدَ إلى أقصى أجا إلى القُرَيَّاتِ من ناحية الشام؛ وبين المدينة والجبلين على غير الجادة ثلاث مراحل ... وبين الجبلين وفدك ليلة، وبينهما وبين خيبر خمس ليال .

ويقول فى مادة العوجاء : ... وهى هضْبة تناوح جبلى طيئ ، أى أجا وسلمى . وعنـد الرواة لهذين الجبلين وتلك الهضبة قصة أيضا ، فأجا وسلمى عاشقان ، كانت تجمع بينهما حاضنة سلمى :

(١) ج ١ ص ١٠٤ (٢) هناك رواية أخرى فى مروج الذهب للمسعودى فيها أن الأسود بن غفار هرب ونزل بدار طيئ، فأجاروه من حسان تبع وغيره من غير أن يعرفوه، فيذكر أن نسله اليوم فى طيئ مذكور (ج ١ ص ٢١٨ — ط عبد الرحمن) .

العَوْجاء ؛ فعلم إخوة سلمى، فتبعوا العاشقين حتى قتلوهما ، كل فى جبل سُمى بعد باسمه، وقتلت الحاضنة فوق الهضبة، فسميت باسمها كذلك .

وهذه الجبال حصينة، منعت أهلها، ومنعها أهلها، فبقيت لهم على رغم ما توالى عليهم من غارات أعدائهم ؛ بلاد واسعة كثيرة المياه والنخل والريف ... وهما أرض ذات شأن ... والمكان واسع ، والشجر يانع، والماء ظاهر، والكلأ غامر ... والتمر قد غطى كرانيف النخل[1] .

وفى سلمى يقول : هو جبل وعر، بِهِ وادٍ يقال له رَكّ : بِهِ نخل وآبار مطوية بالصخر، طيبة الماء، والنخل عصب، والأرض رمل، بحافتيه جبلان أحمران، يقال لها حُمَيّان والغُداة . و بأعلاه برقة يقال لها السراء ...

وقال السكونى : سلمى جبل يقرب من فيد، عن يمين القاصد مكة ، وهو لبنهان ، لن يدخله أحد عليها، وليس به قرى، إنما به مياه وآبار وقُلُب عليها نخل وشجرتان .

وفى هذه الجبال يقول جابر بن رألان السنبسى ، من شعراء الحماسة :

ونحن غلبنا بالجبالِ وعزها ونحن ورثنا غَيَّا وبُدَيْنَا

وفى ذلك قول حسان بن حنظلة الطائى :

غَضِبتْ عَلَىَّ أَن اتصلت بطيءٍ وانا امرؤ مِن طيءِ الأَجْبالِ

وفيها يقول الطِّرِمّاح بن عَدِى للحسين وهو سائر إلى العراق سنة ٦١ هـ ، محاولا منعه عن السير إلى العراق : « ... فإن أردت أن تنزل بلدا يمنعك الله به، حتى ترى رأيك، ويستبين لك ما أنت صانع ، فسر حتى أنزلك جبلنا أجأ ، فهو والله جبل امتنعنا به من ملوك غسان وحمير ، والنعمان ابن المنذر ، ومن الأحمر والأبيض ، والله ما إن دخل علينا ذل قط[2] » . وعن لسان طيءٌ : إنها أكرم دار فى العرب[3] » ، فهى مكان ممتنع خصب ، به الماء والخير .

٥ — نزول طيءٌ بالجبلين

ولما خلص الجبلان لطيءٌ نزلها بنو الغوث، ونزلت جديلة السهل[4]، وجديلة هم أبناء جندب، المذكور فى القصة السابقة؛ فسمى أولئك الجبليين، وهؤلاء السهليين .

ثم مضى زمن كثروا فيه، واضطروا إلى الإغارة على جيرانهم من أسد، حتى اضطروهم إلى نجد، ثم أغاروا عليهم بعدها أيضا، فاضطروهم إلى أن يتقهقروا مسافة ، حتى يصلوا إلى حدود الحجاز[5] .

(١) ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ١١٩ (٢) ابن الأثير حوادث سنة ٦١ هـ . (٣) معجم البلدان ج ١ ص ١١٨ (٤) معجم البلدان ج ١ ص ١١٩ (٥) تاريخ العرب لدى برسيفال ج ١ ص ١٩٣

وفى وصف ذلك التوسع والكثرة يقول ابن خلدون نقلا عن ابن سعيد : ومنهم الآن (زمن ابن سعيد) فى بلادهم أمم كثيرة ، مائوا السهل والجبل ، حجازا وشاما وعراقا (١) .

ويقول فيما بعد ذلك : وكانت الرياسة على طيئ فى الجاهلية لبنى هنىّ بن عمرو بن الغوث بن طيئ .

ويقول ياقوت فى الكلام عن فَيْد : منزل بطريق مكة ... فى نصف طريق مكة من الكوفة ، عامرة إلى الآن (زمنه) ، يودِع فيها الحاج أزوادهم ، وما ينقل من أمتعتهم عند أهلها ، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم ، ووهبوا لمن أُودِعوها شيئا من ذلك . وهم مغوثة للحاج فى مثل ذلك الموضع المنقطع . ومعيشة أهلها من ادّخار العلوفة طول العام إلى أن يقدَم الحاج ، فيبيعونه عليهم ... قال الزجاجى : سميت فيد بفيد بن حام ، وهو أوّل من نزلها ... وقال السكونى : فيد نصف طريق الحاج من الكوفة إلى مكة ، وهى أثلاث ... وثلث لبنى نبهان من طيئ .

فالبلدة قديمة كما يرى فى المنقول عن الزجاجىّ ، وهى إلى الشرق من أجا ، على مسير ليلتين ، « وبينها وبين الكوفة مائة وتسعة فراسخ (٢) » .

« ومنهم بنو لام بن ثعلبة ، منازلهم من المدينة إلى الجبلين ، وينزلون فى أكثر أوقاتهم يثرب (٣) » . أى أن منازل هذا الحىّ من طيئ تقع على خط القوافل الآتى من المدينة ، والقاطع لجزيرة العرب ، متجها شمالا بشرق إلى الكوفة ، مخترقا جبل طيئ الجنوبى ، ماڑا خلال ذلك بخيبر وفيد .

ولا تخفى أهمية هذا الخط ، من حيث أنه طريق المتاجر اليمنية إلى العراق وعكس ذلك . وإلى الجنوب من هذا الخط الهام ، خط آخر يكاد يوازيه ، يخرج من مكة إلى الشمال الشرقى ، منحرفا إلى الشمال انحرافا خفيفا ، يبلغ غايته فى نجد ، حتى يكون فيها أقربه الى جبلى طيئ ، ثم يميل خفيفا الى الجنوب فى اتجاهه إلى الشمال الشرقى ، حتى يصل إلى البصرة .

وقد علمنا ما كان بين أسد وطيئ فى نجد ، واقتحام الثانية على الأولى نجدا ، واضطرارها إياها إلى حدود الحجاز . فكأن هذا الطريق الهام أيضا كانت تهدده طيئ إن لم تكن سيدته .

وهذان الطريقان هما الطريقان الوحيدان ، اللذان تتفرّع عنهما الطرق الأخرى التجارية فى الجزيرة العربية ، فعند المدينة يسير ، غير الطريق الآنف الذكر ، طريق آخر إلى الشمال ، لا يلبث أن يتفرّع فرعين ، يتباعدان قليلا فى اتجاه إلى الشمال الغربى : أحدهما يقف عند العقبة ، والآخر يسترسل إلى الشام . وليس من اليمن إلى العراق أو الشام طريق غير طريق مكة والمدينة هذا ،

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٥٤ (٢) تقويم البلدان لأبى الفداء ص ٩٧ (٣) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٥٤ وما بعدها .

إلا أن تدور القافلة حول جزيرة العرب كلها، متجهة إلى الشرق، مخترقة حضرموت ومهرة وعمان والبحرين، دائرة فى اتجاه لا يمكن تجنبه حول صحراء الجزيرة الجنوبية الكبرى؛ وفى ذلك ما فيه من عسر وزمن وكلفة .

قد يلقى هذا فى الذهن فكرة لا بأس بها عن أهمية موقع طيئ ومنازلها فى الجزيرة، ويرينا من وراء ذلك مقدار الاهتمام الذى يمكن أن يشعر به الفرس فى العراق ، والروم فى الشام ، بطيئ ، لما كانوا يرونه من غلبتها على هذه الطرق . ولاشك أن شيئا من الاطلاع على تاريخ الفرس والرومان، وارتباطهما بجزيرة العرب، ومحاولة كل منهما السيادة فيها بقدر الإمكان، وما كان بينهما من منافسة عليها، حتى أسست كل منهما دولة عربية تتاخمها على حدودها . لا شك أن هذا لا يدع الإنسان يقف عند حدّ الظن ، أن كل دولة إنما كانت تبغى حماية حدودها من غارات العرب وكفى، وإنما كانت تبغى فائدة أخرى ، فتاجر الهند واليمن الغنيتين ، لا يمكن أن تصل إلى الشام بسهولة مثل وصولها بجزيرة العرب .

فاهتمام الفرس والروم بجزيرة العرب ، إنما يرجع فى أساسه إلى هذه الظروف الاقتصادية ، ومن يُعْن بهذا فلا بدّ أن يعنى بمركز طيئ البالغ الأهمية السابقة . ولسنا أمام تاريخ وافٍ، يوضح لنا ما كان من اشتباك بين الفرس والرومان وطيئ ، وإنما نحن بإزاء أحداث متناثرة فى ثنايا الكتب ، ترى اتصالهم بالرومان وبالفرس ، وقد تكون أحداثا جساما، يأتى إليهم ليصلح ما بينهم فيها ملك من ملوك الغسانيين، فإذا أنت نظرت فى أسبابها، وجدت السبب نافقة من النوق مثلا .

قد يكون هذا معقولا، ولكنه يحط بالعرب من الناحية الاجتماعية إلى درك لا يمكن أن يتفق مطلقا مع تلك الثقافة النفسية ، التى تستبينها فى نظام فتحهم أيام الإسلام ، وفى اتباعهم التعاليم التى كان يمليها عليهم قائدهم ودينهم حرفا بحرف ، وفى الوفاء بعهودهم ، ذلك الوفاء الذى هو مضرب الأمثال ، والدين يومئذ طارئ على أمة لو صح ما نتصوره عن حالها لما كفته قرون زجر ووعظ وممارسة، ليبلغ من نفوسهم ذلك المبلغ العجيب .

إن أمة كهذه لا يستطيع إنسان أن يقبل ما ينقل إليه من تاريخها فى تلك الأيام ، على صورته تلك، هذا القبول الساذج السهل . ونحن أمام هذا التناقض مخيرون بين اثنتين : محو التاريخ القديم جملة، لأنه يتناقض مع المتأخر ولا يجاريه، وبينهما تفاوت لا يلائم طبائع الأشياء ؛ أو فهمه على ضوء التاريخ المتأخر عنه ، المروىّ الصحيح عن الإسلام وما كان فيه ، مع ملاحظة دائمة واعية

لما يلوح لنا بين سطور المنقول عن القديم . ففى المنقول إلينا عن الجاهلية غالبا، معالم واضحة الدلالة على الحقيقة التاريخية، ولا سيما إذا هى جردت من سخيف العلة المنقولة، حين تلوح إلى جانبها العلة المعقولة .

٦ — علاقة طيئ بجاراتها

كان سلطان طيئ يمتد من الشرق ، حتى يخالط تغلب وبكرا فى ديارها ، ويمتد من الجنوب فى نجد امتدادا غير معروف الحدود تماما، وإلى الغرب حتى حدود الحجاز، ومن الجنوب الغربى إلى المدينة، ومن الشمال إلى القريات من ناحية الشام .

أما القبائل التى كانت تناوحها ، فمن الشرق بشمال قليلا : بكر، وتغلب النصرانية ؛ ومن الشمال بغرب قليلا : كلب فى بادية الشام ، وهم أحلاف الروم ، كما يقول دى برسيفال فى تاريخه ؛ ومن الجنوب بغرب : أسد فى نجد أولا، ثم بانحراف إلى الغرب بعد ذلك .

وتاريخ طيئ فى الجاهلية يتصل بهؤلاء جميعا، كما يتصل بالحيرة وفيها ملوك اللخميين، وبالشام وفيها الغساسنة . ولم تكن القبائل المحيطة بها حوائل بينها وبين الشام، أو بينها وبين الحيرة . فالطائيون كثير والنشاط، كثير والحركة منذ القدم . وفى تاريخ ابن خلدون[1] : أن تبعا أبا كرب لما غزا العراق أيام أردشير بهمن، كانت طريقه على جبل طيئ، ومنه إلى الأنبار، وانتهى إلى موضع الحيرة ليلا، فتحيروا، وأقام، فسمى المكان الحيرة، ثم سار لوجهه، وخلف هنالك قوما من الأزد ولخم وجذام وعاملة وقضاعة، وطنوا ولحق بهم ناس من طيئ و ... الخ .

وقال أبو عبيدة : «جاء الإسلام وليس أحد أعز دارا، ولا أمنع جارا، ولا أكثر حليفا من شيبان ، كانت ... وكانت عكرمة من طيئ ... فى بنى الحارث ... وبنو حبتر من طيئ فى بنى تميم ... كل هذه قبائل وبطون جاورت شيبان، فعزت بها وكثرت[2] » .

ولما هزمت جديلة فى حرب الفساد — هزمتها أختها الغوث — خرجوا عن الجبال، فلحقوا بكلب، وحالفوهم وأقاموا فيهم عشرين سنة[3] . ويزيدنا ابن حزم فى جمهرته إيضاحا فيقول : إن جديلة وحبيش والأسعد رحلوا كلهم عن الجبلين فى حرب الفساد، فلحقوا بحلب . ويقول دى برسيفال : إنهم نزلوا حول قنسرين — والبلدتان متقاربتان — وذلك بعد جفاء آنسوه من كلب[4] .

ويقول ابن خلدون : إن كسرى لما قتل النعمان بن المنذر، أداله بإياس بن قبيصة الطائى ، وأنزل طيئا بالحيرة مكان لخم[5] .

---

(١) ج ٢ ص ٢٣٧ (٢) ابن الأثير ج ١ ص ٢٧٩ (٣) الأغانى ج ١١ ص ١٢٧
(٤) ج ٢ ص ٦٢٩ (٥) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٥٤ وما بعدها .

هذه طيئ فى الجاهلية وقبيل الإسلام ، وما كانت تشغل من مكان . ومنها نرى أن قبيلا منهم كان متصلا اتصالا وثيقا بالغسانيين، وقبيلا كان متصلا أيضا اتصالا وثيقا بالتميين فى الحيرة .

ولنبدأ بترسم اتصالهم بهما .

(١) علاقتها بالحيرة : أما اتصالهم بالحيرة فواضح جدّا ، فقد رأينا أن أناسا منهم كانوا يقيمون بها منذ غزوة تبع أبى كرِب لها، كما ذكرت .

وفى ابن الأثير[1] أن عمرو بن المنذر غزا مرة ومعه زُرارة بن عُدَس التميمىّ، فأخفق، فلما كان بجبال جبل طيئ قال له زرارة : أى ملك إذا غزا لم يرجع ولم يصب، فِل على طيئ، فإنك بجبالها . فمال إليهم، وقتل وأسر وغنم، فعرفتها له طيئ ، حتى إذا كان يوم قتل فيه رجل من بنى عبد الله بن دارم التميمىّ ابنا لعمرو بن المنذر، كان يربى عند زرارة، أخذ فى تحريض عمرو بن المنذر على زرارة شاعر من طيئ، اسمه عمرو بن مِلقط الطائى فى شعر منه :

فاقتلْ زُرارة لا أرَى ... فِى القومِ أوفَى من زُراره

ويزيد صاحب الأغانى على ذلك أشياء، منها أن عمرا امتنع عن ذلك أولا ، وقال لزرارة لما أشار عليه بغزو الحىّ من طيئ : ويلك! إن لهم عَقْدا[2] ! أما العقد الذى يشير إليه فيقول : إنه كان عاقد هذا الحىّ من طيئ (وليس طيئا كلها)، على ألا ينازعوا ولا يفاخروا ولا يغزوا . ويقول : إن غزوة عمرو هذه كانت لليمامة .

وإن ملكا ينكث بالعقد بهذه السهولة ، لأن زرارة حرضه لغير سبب سوى هذا السبب الساذج، لأمر مستبعد . وأقرب احتمالا منه أن يكون اتصل به أنهم نقضوا عهده من زرارة هذا .

أما فى أيام النعمان بن المنذر فالعلاقة أمتن . فقد كان النعمان جعل لبنى لام بن عمرو بن طريف ابن عمرو بن ثُمامة ... بن جُندَب بن خارجة (وهم من جديلة) ربع الطريق طعمة لهم[3] . ويعلل ذلك بقوله : وذلك لأن بنت سعد بن حارثة بن لام، كانت عند النعمان ، وكانوا أصهاره .

والأمر على ما أرى منعكس، فهو إنما صاهرهم ليتألفهم، وأن ذلك لم يكن إلا بعد محاولات وحروب، وإنا لنجد رجلا إسمه أوس بن سعد يقول للنعمان : « أنا أدخلك بين جبلى طيئ حتى يدين لك أهلها[4] » .

(١) ج ١ ص ٢٥٢ (٢) ج ١٩ ص ١٢٧ (٣) الأغانى ج ١٦ ص ٩٥ (٤) الأغانى ج ١٦ ص ١٠٤

وقد رأينا قبل ذلك كيف أن المُلك انتقل إلى إياس بن قَبيصة الطائى بعد النعمان، وأن كسرى نقل طيئا إلى الحيرة مكان لخم، وإياس بن قبيصة هذا من الغوث .

من هذا كله تتبين الصلة بين الفرس وطيئ، واشتباكها الوطيد بهم، وإنما يرجع ذلك إلى أهمية موقع طيئ بالنسبة لطرق القوافل، التى تخترق الجزيرة العربية .

(ب) علاقة طيئ بالغسانيين : قلت فيما مضى إن المقربين من طيئ إلى النعمان فى ملكه، كانوا من بنى جديلة من طيئ، وإن الذى ملك على الحيرة بعد النعمان هو إياس بن قَبيصة ؛ وهو من بنى الغوث من طيئ . ولا بدّ لهذا التحوّل من أصل غير مجرّد المصاهرة بين النعمان وجديلة . وقد يكون هذا راجعا إلى عدم قبول بنى الغوث النعمان فى جبلهم لما طارده كسرى .

وهناك شىء آخر، ذلك هو التجاء جديلة من طيئ إلى بلاد كلب وحلب، وكلب حلفاء للرومان كما يقول ابن حزم، أو خاضعون لهم كما يقول دى برسيفال ؛ فلم اختارت جديلة الشام خاصة ؟

وأمر ثالث : ذلك أن ابن الأثير يقول فى حديثه عن يوم اليحاميم (قارات حوق)[1] :

« وهو بين قبائل طيئ بعضها فى بعض ، وكان سبب ذلك أن الحارث بن جبلة الغسانى كان قد أصلح بين طيئ ، فلما هلك عادت إلى حربها » .

فهذا ملك من ملوك الغسانيين يتوسط فى الصلح بين بعض طيئ وبعض؛ والمعروف أن ماوقع بين طيئ من حروب ، هى المسماة بحرب الفساد . فما دخل الحرث بن جبلة فى الأمر أولا ؟ وما علة اختيار الشام خاصة مهاجرا، بعد هذا اليوم الذى يكمل حربا توسط فيها هذا الملك الغسانى؟ وما قيام الغوث فى الحيرة بالأمر بعد النعمان صهر جديلة ، وخصوصا إذا عرفنا أن إياسا كان حكمه فى الحيرة حول سنة ٦٠٢ م[2] . وحرب الفساد وقعت حول سنة ٦١٠ م ؟

يجيب عن هذه الأسئلة كلها ما يأتى من تفصيل العلاقة بين طيئ والفرس وبينها وبين الروم.

(ج) علاقة طيئ بالفرس والروم : كانت جزيرة العرب محل نزاع بين الدولتين العظيمتين اللتين تتاخمانها، وكانت أداة من أدوات الصراع الهائل المشبوب بينهما أبدا ، فكل منهما تحاول

(١) ج ١ ص ٢٩٣ (٢) مادة طيئ فى دائرة المعارف الإسلامية : « ومن اللاجئين إلى الروم فى الإسلام أيضا حريث بن زيد الخيل ، لقتله أبا سفيان الفهرى ، رجلا كان أرسله عمر بن الخطاب يستقرئ أهل البادية القرآن ، فاستقرأ أوس ابن خالد بن منهب بن عبد رضا ، فلم يدر شيئا ، فضربه فقتله ، فوثب حريث على أبى سفيان فقتله ، ثم هرب ، فلحق بأرض الروم ، فمات هناك » . جمهرة ابن حزم .

أن تسود فيها، وكانت طبيعة موقع كل منهما، تدعوه إلى السيادة على جزء من أجزاء هذه الجزيرة، فسلطان الفرس يمتد فى شرق الجزيرة العربية، مما يلاصق حدودهم فى العراق وعلى خليج فارس؛ فكان المنذر بن النعمان ملكا، ملكه كسرى على عمان والبحرين واليمامة، إلى الطائف وسائر الحجاز[1].

وكانت الرومان تبسط نفوذها على الشام ومن فيه من العرب، وعلى ما يلاصق حدودهم من الجزء الشمالى فى جزيرة العرب، وفيه كلب حليفتهم؛ وكان على أعراب الشام خالد بن جبلة الغسانى. و ينسب ابن الأثير اجتياح كسرى الأول للشام وفتحه اياها الى خصومة بين هذين الملكين العربيين[2].

وذلك فى حكم كسرى أنو شروان على الفرس، وحكم جستنيان على الروم، وهما الملكان المتعاصران (٥٣١ — ٥٧٩ م)[3].

وكلاهما كانت تمثل فيه تلك الخصومة الكائنة أبدا بين الشرق والغرب، وكلا الأميرين العربيين كان يمثل سياسة صاحبه، ويجهد فى التغلب على الآخر. ولم تكن جزيرة العرب بالأرض السهلة، التى يستطاع اخضاعها لسلطان واحد، واجراء الأحكام عليها مجرى النفوذ الدائم، للتقطع الطبيعى البادى بين مقامات الناس فيها، فكانت خير الوسائل هى سياسة استمالة القبائل، تجنح إليها كل من الدولتين المتنافستين. وكانت طيئ قسمين: الغوث وتقيم بالجبال، وجديلة وتقيم بالسهول، ولما اتسعتا انساحتا فيما حول الجبال من الأرض. ويظهر أن طيئا فى جملتها كانت أميل إلى محالفة الفرس. فكان الغسانيون يلحون عليهم بالغارة محاولة لإخضاعهم. وفى الاشتقاق: أن معترا أحد فرسان الغوث، قتل ملكا من غسان كان غزاهم[4]، فكان أكثر طيئ تعرضا لغاراتهم جديلة، كما أن مقام جديلة فى السهل، واتصالهم بكلب حليفة الروم، كان يقرب بينهم و بين الروم، فكانت جديلة أكثر ميلا إلى محالفة الروم، لتأمن هذه الغارات المنظمة على أرضهم؛ أما الغوث فكانت تمتنع بجبالها، فلا يكاد الغسانيون ينالونهم بشيء، ولذلك بقيت على ولائها للفرس، فكانت القبيلة منقسمة إلى هذين الشطرين.

(١) ابن الأثير، ج ١ ص ١٩٤ (٢) ابن الأثير، ج ١ ص ١٩٤: (يقول: "إن خالدا هاجم المنذر فقتل من قومه أناسا فأرسل كسرى إلى غسطانيوس (جستنيان) يذكره ما بينهما من العهد والصلح و يعلمه مالق المنذر و يسأله أن يأمر خالدا برد ماغنم، ودفع دية من قتل، و إلا انتقض الصلح. فلم يرد. فراجعه فلم يحفل به. فاستعد وغزاه، وكان طريقه على الجزيرة، فأخذ مدن دارا والرها. وعبر إلى الشام، فملك منبج وحلب وأنطاكية ... وحمص وبدنا كثيرة متاخمة لهذه المدائن... وأما سائر مدن الشام فان غسطانيوس ابتاعها بأموال عظيمة"). (٣) (Outline of history: Wells)

(٤) الاشتقاق ص ٢٢٨

وكانت فارس لا يفوتها أن تجتذب جديلة، فهي تسعى إلى ذلك . ومن هنا يأتي إصهار النعمان ابن المنذر ملك الحيرة إلى بني لام من جديلة، وإعطاؤهم ربع الطريق طعمة لهم .

ولكن ذلك الحلف لا يدوم، لعامل خفي لا نعرفه، قد يكون نتيجة محاولة جديدة من الروم أن يضموا جديلة إليهم، ويكون ذلك لنكبتهم في صهرهم النعمان عند كسرى، وغضب كسرى بهم وحرمانهم ما كانوا يأخذونه من دَخل ربع الطريق .

وعلى أثر ذلك تقوم حرب الفساد بين الغَوث وجَديلة، حول سنة ٦١٠ في ولاية إياس بن قَبيصة على العراق، بعد النعمان بن المنذر . وليس من الغريب أن تقوم هذه الحرب بين هذين الحيين من القبيلة الواحدة تفرق بينهما السياسة، في زمن يقوم فيه أيضا ذلك الصراع العنيف بين دولتي الفرس والرومان . ففي ذلك الوقت نفسه كانت انتصارات كسرى الثاني (كسرى أبرويز = ٥٩٠ — ٦٢٨ م) تترى على الروم، وجيوشه تكتسح أنطاكية ودمشق، وتسقط في أيديهم مدينة بيت المقدس سنة ٦١٤ م، ويأخذون منها الصليب المقدس كما يقولون، حتى يقف سورة هذا الفتح هرقل من ابتداء سنة ٦٢٣ م، ويضع له حدا في نينوى سنة ٦٢٧ (١)، وليس من الغريب أن تلجأ جديلة إلى كلب حول هذا الزمن، ثم تفارقهم، فتنزل حول حلَب بعد انتصار الروم على الفرس واسترجاعهم الشام .

أما الغوث فهي مع الفرس، ينقذ أحدها، وهو حسان فارس الصَّبيب، كسرى أبرويز على فرسه، في حرب بينه وبين قائد يثور به من قومه، هو بَهْرام شوبين (٢) . وتشترك في الحرب مع الفرس في هجمة الروم على النهروان، حتى ليقول صاحب الاشتقاق عن إياس بن قبيصة الطائي من الغوث : إنه " هزم الروم لما نزلوا النهروان في أيام برويز (٣) " .

فموقف طيئ في الحرب بين فارس والروم لم يكن سلبيا . ولم يقف عند حد الصراع بين بعضها بعض، ولكنه تعداه الى الاشتراك العملي في الحرب القائمة حينئذ بين الدولتين .

والحرب بين طيئ بعضها وبعض لم تكن إلا جزءا من ذلك الكفاح بين الفرس والرومان، ولا أغالي إذا قلت إنّ شيئا من الظن يلوح للناظر في هذا بأن جزيرة العرب كلها كانت قسما من ميدان الحرب القائمة بين هاتين الدولتين، وأن نهضة العرب بعد ذلك لم تكن إلا نتيجة تلك الانفعالات القاسية التي تنبه الأمم للعمل، وتوقظها من السبات، وتجمع بين أشتاتها، وتكون مصدرا لإلهامها آمالا جساما، بتحميلها آلاما جساما .

(١) (Outline of History. P. 388.) (٢) الاشتقاق : طيئ ص ٢٣١ (٣) الاشتقاق ص ٣٣١

فى هذا كله مايدل على الاتصال السياسى بين طيئ، بل هذا الحى من طيئ خاصة، وهو جديلة، وبين الغسانيين . وفيه مايثبت ما قلت من اشتراك طيئ اشتراكا عمليا ببطنيها فى سياسة هاتين الدولتين . وفيه أيضا تفسير واضح لتلك الأموال الغزيرة ، التى كانت تتدفق على الطائيين، لأنهم حماة جزء هام جدا من الطريق التجارى بين اليمن والحيرة، وبين اليمن والعراق .

وفيه تفسير لذلك النزاع الهائل، الذى كان يشب بين الأخوين ويفرق بينهما. وفيه تفسير تلك الحروب التى كانت تقوم بين طيئ وجارتها .

وليس تفسير ذلك كله فى قصة الجمل ، الذى أبى صاحبه أن يدفعه إلى آخر من طيئ قبيلته، فثارت بينهما الحرب المسماة بحرب الفساد ، فتدخل الحرث بن جبلة ليصلح بينهما . كما أن هناك ظاهرة غريبة . تلك هى لجوء الفارين من طيئ إلى الشام ، ونزول شعراء منهم بالغسانيين ، فأبو زبيد الطائى قصد فى الجاهلية الحارث بن أبى شمر الغسانى[1]. والبُرَج بن مُسهِر الجلاَّس الطائى افتض أخته فى سكْره ، وكان نازلا بغطفان هو وجماعة من طيئ ، فلما ظهر أمره ركب رأسه، وخرج من بين أظهرهم، ولحق ببلاد الروم، فلم يعرف له خبر[2] .

والصلة واضحة بين طيئ وبين الروم من كل ما سردته . فاذا اقتبست طيئ أسماء رومية ، فلا غرابة فى ذلك . هذا لو صح أن اسم والد أبى تمام هو تدوس .

صلة طيئ بالقبائل العربية : أما صلة طيئ بالقبائل العربية، فقد كانت صلة تحالف أحيانا، وصلة تحارب أحيانا . ففى برسيفال أنهم كانوا حلفاء أسد . وقد كان يشب ما يبيض هذا الحلف فيتحاربون .

وفى الأغانى نجد أنه كانت لهم مغاورات مع عَبْس، ومنها تلك الموقعة التى تبنى فيها عنترة أبوه بعد إنكار[3] . وكان بينها وبين غنىّ موقعة، أوقعت فيها غنى بطيئ، وكانت الموقعة بين القَنان وشرقى سلمى، وفيها يقول طُفيل الغَنَوىّ شعرا، منه :

فذوقوا كما ذقنا غَداة مُحَجَّر ... من الغيظ فى أكبادنا والتحوُّب[4]

فبالقتلِ قتلٌ ، والسُّوام بمثله ، ... وبالشل شلٌّ العابط المتصوِّب

(١) الأغانى ج ١١ ص ٢٣ (٢) الأغانى ج ١٢ ص ١٢١ (٣) الأغانى ج ١٠ ص ٢٢

(٤) الأغانى ج ١٤ ص ٨٦

قال أبو عمرو الشيبانى: وكان زيد الخيل مُلِحّا على بنى أسد بغاراته، ثم على بنى الصيداء منهم[١]، وكانت له غارات فى جموع من طيئ على بنى عامر. وكان لبنى عامر أيضا غارات على طيئ ثأرا لهذه، وقد وقع فى يده فى غارة من هذه الغارات الحطيئة الشاعر، فجز ناصيته وأطلقه. وله غارات على سُلَيم وفزارة.

٧ — منزلة طيئ

أما منزلة طيئ فقد رأينا من قبل مَنَعتها فى مقاماتها وغناها. وتلك جميعا أساس العظمة النفسية والسمو الخلقى. وإن خير ما يؤدّى صورة عن طيئ هو قول زيد الخيل فيها لعمر بن الخطاب، لما دخل زيد إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى بَعْث قومه عام الوفود، قال: "فى كلّ يا عمر نجدة وبأس وسيادة ... ... أما بنو حَيّة فملوكنا وملوك غيرنا ... وهم القادة، والحماة الذادة ... الخ. فقال عمر: ما تركت لمن بقى من طيئ شيئا، فقال: بلى والله، أما بنو ثُعَل وبنو نَبْهان وجَرْم ففوارس الغدوة، وطلاعو نجوة ... الخ وأما بنو جديلة فأسهلنا قرارا، وأعظمنا أخطارا ... الخ ثم عدّد رجالا من رجالهم، وصف كلا منهم بصفة، ومضى فى ذلك، فاعترض رجل من بنى ثعل لما مدح زيد حاتما، وقال: ومنا زيد بن مهلهل النبهانى، سيد الشِّيب والشبان، وسَمّ الفوارس ... ... أسرع إلى الإيمان، وآمن بالفرقان، رئيس قومه فى الجاهلية وفى الإسلام، رائدنا إلى رسول الله عليه السلام... ومنا الأسد الرهيص[٢]".

ومنهم حاتم بن عبد الله الكريم المعروف، وحكاياته أشهر من أن يعرَف بها أحد؛ ويقال فى الوصف: لهم جُرْأة بنى الحارث، وفتك مُراد، وبأس زُبيد، وكيد جُعْف، ومُغار طيئ. ويمتاز خلق الطائيين بحلاوة وسمو، وسماحة بالغة ووفاء.

٨ — عبادات طيئ قبل الإسلام

"كان لطيئ صنم يقال له الفِلْس، وكان أَنْفا أحمر فى وسط جبلهم الذى يقال له أجا، أسود كأنه تمثال إنسان. وكانوا يعبدونه، ويهدون إليه، ويعتِرون عنده عتائرهم، ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه، إلا تركت له، ولم تخفر حَوِيتَه[٣]، وكانت سدنته بنى بَوْلان، وبولان هو الذى بدأ بعبادته، فكان آخر من سَدَنه منهم رجلا يقال له صيفى[٤]" وقد أخفره

(١) الأغانى ج ١٦ ص ٤٦ وما بعدها. (٢) النص فى الأغانى ج ١٦ فى ترجمة زيد الخيل.
(٣) الحوية كغنية: الدائرة، أى ولم يصن حقه. (٤) الأصنام لابن الكلبى ص ٥٩

رجل شمجيّ شريف لحكاية ذكرها الكلبي ، فلم يصبه شيء وعديّ بن حاتم يومئذ عنده ، فترك عبادة الصنم . " ولم يزل الفلس يُعبَد حتى ظهرت دعوة النبي عليه السلام ، فبعث إليه عليّ بن أبي طالب ، فهدمه ، وأخذ سيفين كان الحارث بن أبي شَمِر الغسانى ملك غسان قلّده إياهما ، يقال لهما مِخذَم ورَسُوب ، فقدم بهما على النبي ، فتقلد أحدهما ، ثم دفعه إلى على بن أبى طالب ، فهو سيفه الذى كان يتقلده[(١)] . أما ابن هشام فى السيرة فيقول أن زيد الخيل هو الذى أهدى السيفين إلى النبي فى مَقدَمه عليه[(٢)] . " وذكر بعض الرواة أن رُضَا كان بيتا لبنى ربيعة بن كعب بن زيد مَناة ، فهدمه المستوغر[(٣)] " .

ومع ذلك فإنه يذكر كمعبود لطيئ فى مواضع أخرى كالأغانى ، وفى أجداد بعض الطائيين من يسمى رُضَا ، يمدّ ويقصر .

هذه عبادة من عبادات طيئ ، وهى الوثنية .

وكان فى طيئ أيضا النصرانية ، فإن عدى بن حاتم بعد الحادثة الماضية وإخفار الفلس ، تنصر ، وهو يقول عن نفسه : ما من رجل من العرب كان أشدّ كراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به منا ، أما أنا فكنت أمرءا شريفا ، وكنت نصرانيا ، وكنت أسير فى قومى بالمِرباع[(٤)] ، فكنت فى نفسى على دين ، وكنت ملكا فى قومى ... فلما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم كرهته . فقلت لغلام لى عربى ، وكان راعيا لإبلى ، أعدد لى مراحلى ، أجمالا ذُلُلا سِمَانا ، فاحتبسها قريبا منى ، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد ، فآذنى ، ففعل ... .[(٥)]

ثم هرب إلى الشام تاركا أختا له ، أخذها الجيش المسلم إلى رسول الله ، فأطلقها إكراما لأبيها .

ومن النصارى فيهم أبو زُبَيد الطائى الشاعر المعروف ، وهو ممن أدرك الجاهلية والإسلام ... وكان من زوّار الملوك ، وكان عثمان يدنى مجلسه برغم نصرانيته[(٦)] . ومنهم أيضا وَزَر بن سدوس : لما سمع بالنبي حلق رأسه ، وتنصر ، وهرب إلى الشام[(٧)] .

ويرى دى برسيفال أنه كانت فيهم يهودية . ور بما استؤنس لذلك بما يقال من أن كعب بن الأشرف شاعر اليهود ، الذى كان يهجو النبي ويحرض عليه المشركين فى المدينة ، حتى أمر النبي به فقتل ،

(١) الأصنام : ص ٦١ و ٦٢ (٢) الروض : ج ٢ ص ٣٤٢ (٣) الأصنام : ص ٣٠
(٤) وهو أن يأخذ ربع المغنم . (٥) الروض الأنف : شرح السيرة ص ٣٤٣ من ج ٢
(٦) الأغانى : ج ١١ ص ٢٣ (٧) الروض الأنف : ج ٢ ص ٣٤٢

كان أبوه من طيئ[١] . كما أن خَيبر كانت فى مكان تبسط فيه أيدى الطائيين إلى حدّ بعيد ، وهى قريبة جدّا من جبال طيئ ، وعلى الطريق بين المدينة و بينها .

و يقول برسيفال أيضا إنهم كانوا يتوجهون من النجوم إلى سهيل[٢] .

وقد ظلت طيئ متصلة بالنصرانية اتصالا محكما ، حتى بعد الإسلام ، فكانوا فى ظروف كثيرة ينضمون إليها ، فغلبة منها كانوا فى الشام مع الصليبيين فى هجماتهم عليها ضدّ المسلمين[٣] ، وذلك فى أيام السلطان صلاح الدين الأيوبى . و يبدو لى أن النصرانية فى طيئ كانت تلى الوثنية من حيث الانتشار ، وتليهما اليهودية ، وتلك نزر يسير .

٩ — طيئ فى الاسلام

(١) إسلام طيئ : يكتنف إسلام طيئ غموض فى كيف أسلمت؟ فزيد الخيل يأتى النبى على رأس وفد ، فيستقبله النبى و يثنى عليه ثناء جما ، و يسميه زيد الخير ، ومع ذلك فنحن نسمع أن عليا رضى الله عنه قد ذهب إلى جبال طيئ فى خمسين أنصاريا ، على قول دائرة المعارف الإسلامية ، لكسر صنمهم الفلس . وفى القصة أنه أحضر معه ابنة حاتم أسيرة ، وهى أخت عدىّ ، ثم أطلقها النبى . فالوفد معناه إسلام القبيلة ، واستحضار الأسرى معناه مقاومتها للمسلمين ؛ ولو قاومت طيئ لما كفى لحربها علىّ ومعه خمسون أنصاريا ؛ فلا يبقى إلا أن عليا ذهب لكسر الصنم ، فى قبيلة أسلمت إلا قليلا منها كعدىّ بن حاتم ، الذى سار إلى الشام تاركا أخته ، فأخذها الإمام على ، لأنها لم تسلم ، وأخوها لم يسلم أيضا .

ولكن تبقى القصة التى تقول إن عليّا رآها جميلة ، ولم يكن يعرفها ، فكاد يطلبها من النبى ، ولكنها كلمت النبى ووصفت له أباها ، فقال لها : ياجارية هذه صفة المؤمن ، وأطلقها[٤] . فإن هذه تدل على أن عليّا لم يعرفها ، مع أنه هو الذى أتى بها إن صحت الرواية .

وهناك رواية أخرى فى الروض الأنف ، أنها كلمت النبى مرتين ، فأغضى عنها ، فلما كان ثالث يوم كادت لا تسأله ، ولكن رجلا أشار إليها أن تعيد عليه الطلب ثانيا ، ففعلت ، فلما سألت عنه بعد ذلك أخبروها أنه على بن أبى طالب . فهى الأخرى لا تعرف عليا ، فكيف يكون هو الذى أتى بها من طيئ ؟

(١) الأغانى ج ١٩ ص ١٠٦ (٢) برسيفال : تاريخ العرب قبل الاسلام . (٣) البيان والاعراب للقريزى .
(٤) الأغانى ج ١٦ ص ٩٣

الواضح أن فى الأمر اضطرابا، والمفهوم إجمالا أن طيئا أسلمت من غير حرب، وأن عدى بن حاتم أسلم هو الآخر، وجعله النبى على زكاة طيئ وصدقتها ومعه آخران، وذلك عام الوفود؛ وكان على رأس الوفد الذى جاء من طيئ للنبى زيد الخيل، وقد كتب له النبى، فقطع له فيدَ وأرضين معها، ولكنه مات فى الطريق[١]. وأسلم كل من جاء إلا وزر بن سدوس، فإنه قال: إنى لأرى رجلا ليملكن رقاب العرب، ولا والله لا يملك رقبتى عربى أبدا، ثم لحق بالشام، وتنصر وحلق رأسه.

هـذا عن إسلام طيئ كلها، على ما يظهر. أما أنه كان هناك منها أفراد مسلمون قبل ذلك، فذلك يفهم مما يذكره الواقدى عن أربعة من المنافقين سبقوا النبى إلى تبوك قبل غزوها، منهم الحارث بن يزيد الطائى[٢].

وفى غزوة تبوك نجد رجلا طائيا مسلما يقول شعرا، واسمه بجيرة بن بجرة[٣]. وفى غزوة تبوك ممن لهم السبق فى الإسلام، واشتركوا فى بدر الكبرى، نجد رجلا اسمه أبو مخشىّ الطائى[٤]، وكان حليفا لبنى حجر آل بنى سُلَيم المسلمين والغازين فى بدر، وعدتهم ستة عشر رجلا. "وممن له صحبة من الطائيين جرير بن أوس بن حارثة بن لام الطائى، وابن أخيه عروة بن مضر بن أوس بن لام الطائى، له صحبة ورواية[٥]".

(ب) طيئ زمن الردّة: يقول ابن الأثير[٦]: لما مات النبى ... وسير أبو بكر جيش أسامة، ارتدت العرب عامة أو خاصة، إلا قريشا وثقيفا. واستغلظ أمر مسيلمة وطليحة (الأسدى).

"وتبع طُليحة كثير من العرب عصبية، ولذلك كان أكثر أتباعه من أسد (قومه) وغَطَفان وطيئ ... وسارت فزارة وغطفان إلى جنوب طايبة، وأقامت طيئ على حدود أراضيهم[٧]".

وكان انضمام طيئ إلى أسد فى هذا الحلف كان بينهم[٨]، لم يروا أن ينكثوا به، وكان طليحة يقيم ببُزاخة[٩]، وهو ماء لأسد، "فأرسل إلى جدَيلة والغَوث من طيئ يأمرهم باللحاق به، فتعجل إليه بعضهم، وأمروا قومهم باللحاق بهم فقدموا على طليحة[١٠]".

ويظهر أن عدى بن حاتم لم يكن فيهم يومئذ، فقد كان ذهب بصدقاتهم إلى المدينة، فلما عقد أبو بكر رضى الله عنه لخالد اللواء، ووجهه إلى طليحة، أمره أن يبدأ بطيئ، ومنهم يسير إلى بُزاخة.

(١) الروض الأنف ج ٢ ص ٣٤٢ (٢) الروض الأنف ج ٢ ص ٣١٦ (٣) الروض الأنف ج ٢ ص ٣٢٠
(٤) الروض الأنف ج ٢ ص ٩٥ (٥) جمهرة الأنساب لابن حزم. (٦) ج ٢ ص ١٦٥
(٧) ص ١٦٦ ولم نجد مكانا باسم طايبة فى المعاجم ولكن فى ياقوت "طابة" مكان من أرض طيئ. فلعله المراد.
(٨) ص ١٦٨ (٩) معجم البلدان: ياقوت. (١٠) ابن الأثير، ج ٢ ص ١٦٧

"استمهله عدىّ، وقدم على طيئ، فدعاهم وخوّفهم فأجابوه، وقالوا له: استقبل الجيش: (جيش خالد)، فأخره عنا حتى نستخرج من عند طليحة منا، لئلا يقتلهم؛ ففعل، وأرسلت طيئ إلى إخوانهم عند طليحة، فلحقوا بهم، فعادت طيئ إلى خالد بإسلامهم، ولحق بالمسلمين ألف راكب منهم، فكان خير مولود فى أرض طيئ"[1].

وكانت طيئ شديدة النصب للوفاء بحلفهم لأسد، فرأوا أن يَكْفُوا خالدا بنى قيس بدلا من حرب أسد، لما بينهم وبين أسد من حلف يدعوهم إلى كف أيديهم عنهم، وعارض فى هذا عدىّ بن حاتم قائلا: "لو نزل هذا على الذين هم أسرتى، الأدنى فالأدنى، لجاهدتهم عليه" ولكن خالدا رأى أن يذهب عدىّ معهم إلى من هُمْ لقتالهم أنشط[2].

ويقول ابن الأثير فى مكان آخر، فى الكلام على حروب الردّة: إن خالدا لما انتصر، لم يقبل من أحد من أسد وغَطفَان وطيئ وسُلَيم وعامر، إلا أن يأتوه بالذين حرقوا وقتلوا وعَدَوا على المسلمين فى حال ردّتهم، فأتوه بهم، فمثل بهم، وحرّقهم، ورَضَخهم بالحجارة، ورمى بهم من الجبال، ونكسهم فى الآبار.

وفى الكلام عن أم زِمْل: "واجتمع أفلال غطفان وطيئ و... إلى أم زمل، فلما بلغ خالدا أمرها سار إليها، فاقتتلوا قتالا شديدا، فقتلت".

ويستخلص من هذا كله، أن طيئا ارتد أكثرها عن الإسلام بعد موت الرسول، ومنعوا الزكاة، وبقى ناس منهم على إسلامهم.

فأما المرتدّون فكانوا فئتين، فئة لزمت حدود بلادهم، لا يضيقون على ما يظهر بشىء قدر ما يضيقون بالزكاة، فهم يمنعونها، ولكنهم لا يتوسلون بقتل ولا نهب فى مقاومة الإسلام؛ وفئة أعملت فى المسلمين السلب والنهب والتحريق، وأولئك رأينا ما كان من خالد فى عقوبتهم، فلما انتصر خالد هرب منهم أفلال إلى أم زمل، فقاتلوا معها حتى قتلت. والواضح أن أولئك المرتدّين المقاومين منهم لم يكونوا كثيرين.

(ج) طيئ فى الفتوح: ثم جاء عصر الفتوح، وقام العرب بنصيبهم الضخم فى تكوين تلك الحلقة من سلسلة النشوء الإنسانى، وساروا بذلك الجهد المقدور الذى لا يردّ، يسحقون الممالك، ويدوسون التيجان، ويهزون ذلك العالم الذى استغرقه سبات قرون طوال ليفيق، وقامت طيئ

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ١٦٨ (٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٦٨

بنصيبها فيهم، فهم يشاركون فى فتوح الممالك، ويتفرقون فى البلدان، ففى الشام منهم قوم، وهم بها خبيرون، فمن قبل نزلت بها جَديلة منهم بعد حرب الفساد، وكان يتتابع إليها من الغَوث أناس، لشئون أبنت بعضها فيما سبق. وفى العراق منهم قوم يفتحون ويجاهدون، فالسليل بن زيد بن مالك ابن المعلّى السِّنْبِسيّ يغرق يوم اجتاز المسلمون دجلة إلى المدائن، لا يغرق من المسلمين غيره[1].

ويقود خالد بن الوليد جيشه مخترقا به بادية السماوة، سائرا من العراق إلى الشام، ودليله رافعة[2] ابن عميرة، وهو يومئذ بها خبير خبرة تفجر لسان شاعر عربى، فيقول فيه:

لِلّهِ عينا رافع أنّى اهتدى فَوزٌ من قُراقِرٍ إلى سُوى[3]

حتى إذا تم الفتح للمسلمين، واستقروا بالممالك المفتوحة، استقرت طيئ استقرارهم، فمنهم بالموصل بنو أحمد بن الحارث بن ثمامة بن مالك بن جدعاء[4]. "قال ابن سعيد: ومنهم فى بلادهم الآن أمم كثيرة، ملئوا السهل والجبل، حجازا وشاما وعراقا... وهم أصحاب الدولة فى العرب لهذا العهد فى العراق والشام، وبمصر منهم سِنبِس والثعالب بطنان مشهوران. ومنهم زُبيد بن معن بن عمرو... بن سَلامان ابن ثُعَل فى بريّة سنجار[5]: (من ديار ربيعة بين دجلة والفرات)... وبجهة بنيامين والشام بنو صخر. ومن بطونهم غزية المرهوب صولتهم بالشام والعراق... وبنو غزية كثيرون وهم فى طريق الحاج بين العراق ونجد[6].

ويقول المقريزى «إن ثعلبة بن سلامان من طيئ بقيت حتى أيامه بالشام، مما يلى أرض مصر إلى الخروبة[7]... وكانوا يدا مع الإفرنج لما ملكوا البلاد فى الإسلام[8]». والإشارة فى ذلك الى الحروب الصليبية قبيل صلاح الدين وفى أيامه. ويقول أيضا إن ثعلبة هذه وطائفة من جرم أتتا إلى مصر بعد أن فتح صلاح الدين الأيوبى بلاد غزة.

وفى ابن حزم: أن سُدوس (بضم السين فى طيئ، وفى غيرها بفتحها) تنزل الأندلس. وفيه أيضا: أن من ولد الطرِمّاح الأكبر، وهو ابن عدى بن حاتم، كان أبو مالك أبان بن الصمصامة ابن الطرماح... وكان راوية الأشعار واللغة، ساكنا بالقيروان بإفريقية. وكان عُروة بن زيد الخيل على جيش لِفتح

(١) جمهرة الأنساب لابن حزم. (٢) رافعة فى ابن حزم ورافع فى الاشتقاق لابن دريد. (٣) ابن دريد الاشتقاق ص ٢٣٣ (٤) ابن حزم يكتبها جذعاء وابن دريد يكتبها جدعاء. وعبارة ابن حزم بعد هذه قد تشعر أنهم كانوا هناك أيضا فى الجاهلية، فهو يقول: وأبوهم سمى أحمد فى الجاهلية.
(٥) تقويم البلدان لأبى الفداء ص ٢٨٢ (٦) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٥٤ وما بعدها.
(٧) حصن بسواحل الشام مشرف على عكا (ياقوت). (٨) البيان والإعراب.

الرى والديلم، بعثه عمار بن ياسر بأمر عمر بن الخطاب، فكانت له فيهم فتوح عظيمة؛ وقد وفد على عمر، واستخلف مكانه أخاه حنظلة بن زيد الخيل[1]. وكانت صلة طيئ بالشام والعراق من هذه البلاد جميعا، أوثق الصلات، وأخصها الشام. فقد رأينا تلك الصلة المتينة فى الجاهلية، الماثلة فى هجرة الطائيين إليها جماعات وأفرادا، وفى ذلك التحالف الواضح بين جديلة والغسانيين، وفى محاولات ملوك الغساسنة إخضاع طيئ لها، وفى تلك النصرانية التى كانت منتشرة فى طيئ انتشارا ملحوظا. فلما استقر المسلمون بالممالك المفتوحة، بقيت طيئ بالشام، ورسخت فيه قدمهم، وسنرى فيما بعد أن من كان منهم بالشام كان مع معاوية، ومن كان منهم بالعراق كان مع علىّ أو الخوارج. ورسخت قدم الطائيين بالشام، حتى أصبحنا نسمع المؤرخين فى الأنساب يتحدثون، كما رأينا فى النصوص السابقة، عن عزهم بالشام والعراق، وعن دولتهم، وعن رهبة جانبهم؛ وحتى سمعنا ابن خلدون يصرح بأنهم « ورثوا أرض غسان بالشام، وملكهم على العرب ».

ثم انفرد « بنو مُهنّى الملوك على العرب إلى هذا العهد، بمشارف الشام والعراق وبرّية نجد.

(د) طيئ فى عهود الانقسام الإسلامى: ثم تفرّق المسلمون بين على ومعاوية، وقامت المنافسة بين الشام والعراق، واحتربت الحرب بينهما. وانقسمت كذلك طيئ، فمن بالشام منها مع معاوية، ومن بالعراق مع على.

وانقسم أهل الحجاز على أنفسهم، فجماعة مع على، وجماعة مع عائشة، حتى إذا كان قبيل موقعة الجمل وعلىّ بالرَّبَذة « أتاه جماعة من طيئ ..... فقيل له هذه جماعة قد أتتك؛ منهم من يريد الخروج معك، ومنهم من يريدون التسليم عليك ... فلما دخلوا قال لهم: ما شهدتمونا به؟ قالوا: شهدناك بكل ما تحب. فقال: جزاكم الله! فقد أسلمتم طائعين، وقاتلتم المرتدين، ووافيتم بصدقاتكم المسلمين. فنهض سعيد بن عبيد الطائى فقال: يا أمير المؤمنين، إن من الناس من يعبر لسانه عما فى قلبه، وإنى والله ما أجد لسانى يعبر عما فى قلبى، وسأجهد وبالله التوفيق ... فقُتِل معه بصفين[2] ».

وسار علىّ من الرَّبَذة ... فلما نزل بفيد أتته أسد وطيئ، فعرضوا عليه أنفسهم، فقال: الزموا داركم، فى المهاجرين كفاية[3] ».

---

(١) جمهرة الأنساب لابن حزم. (٢) ابن الأثير، ج ٣ ص ١١٢ (٣) المصدر نفسه.

وكان عدى ابن حاتم الطائى صاحب النبى مع على ، ففُقئت عينه يوم الجمل[1] « وكان مع على رضى الله عنه فى جميع مشاهده « كان صاحب رايته يوم صِفّين ، وكان بنو عم عدىّ بن حاتم : لام ، وحلبس ، وصلحان ، بنو غطيف بن حارثة ، مع معاوية يوم صِفّين[1] ، وكان على رأسهم بالشام حابس بن سعد بن المنذر ، قتل مع معاوية فى صفين ، وكان عمر بن الخطاب ولّاه قضاء حمص[1] ، ثم عزله عنها .

يقول ابن الأثير فى وصف صفين : « وقاتلت طيئ يومئذ قتالا شديدا ، فعبئت لهم جموع ، فأتاهم حمزة بن مالك الهمدانى ، فقال : من القوم ؟ فقال عبد الله بن خليفة ، وكان شيعيا شاعرا خطيبا : نحن طيئ الرماح ، وطيئ البطاح ... الخ » .

ولما خرج الخوارج كان منهم أناس فى أول من خرج ، فإن زيد بن حصين الطائى ، ورجلا آخر فى عصابة من القُرّاء صاروا خوارج فيما بعد ، قال لعلىّ لما رآه ممتنعا عن الاحتكام إلى كتاب الله : ياعلىّ أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه ، وإلا دفعناك بُرمتك إلى القوم ، أو نفعل بك ما فعلناه بابن عفان[2] .

ولما قبل علىّ التحكيم ، واختار الحكم ، وأراد أن يبعثه للحكومة ، أتاه رجل من الخوارج ، هو زُرْعة بن البُرجَ الطائى وآخر معه ، يريدانه على الحرب مع معاوية ، يقولون : لا حكم إلا لله . فقال على : لا أنقض كتابا وعهدا عاهدته إنسانا ... ... فقال زرعة : يا على ، لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقاتلنك ، أطاب رحمة الله » .

ولما عزم الخوارج على ترك الكوفة ، أرادوا أن يولوا عليهم رجلا ، فعرضوها على زيد بن حصين الطائى ، السابق الذكر ، فأباها ، ثم كان على رأسهم يوم النهروان ، فقتله أبو أيوب الأنصارى .

فلما قتل علىّ سنة ٤٠ هـ ، ثم تنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية سنة ٤١ ، تحرك الخوارج لقتال معاوية ، ونصبوا عليهم عبد الله بن أبى الحوساء الطائى ، وكانوا ينزلون النخَيْلة ، بقرب الكوفة .

وفى سنة ٤٢ هـ ، كان اجتماع الخوارج فى الكوفة وقد ولى عليها المُغيرة بن شُعبة على ثلاثة منهم ؛ أحدهم مُعاذ بن جُوَيْن الطائى ، ابن عم زيد بن حصين المقتول فى النهروان . ومن الخارجين على زياد مُعاذ الطائى ، ويقال لأصحابه أصحاب نهر عبد الرحمن[3] .

---

(١) ابن حزم . (٢) ابن الأثير ، ج ٣ صفين . (٣) ابن الأثير فى مواضع متفرقة .

من هذا كله يتبين كيف كانت طيئ العراق منقسمة على نفسها أيضا ، إلا أن أكثرها مع علي في حياته ، وهم ذوو ميل واحترام لذكراه بعد موته .

ومنها جماعة خرجت عليه مع الخوارج .

وإنا لنجد أيضا بعض الطائيين في قتلة الحسين من أهل العراق ، " فإن حكيم بن طُفيل الطائي كان أصاب سَلَب العباس بن علي ، ورمى الحسين بسهم في كَرْبَلاء ، وكان يقول : تعلق سهمي بسرباله وما ضره "[1] .

كما نجد أن منهم بعض الشيعة ، كجعفر بن عفان ، شاعر الشيعة المكفوف ، كان من جَدِيلة[2] .

رأينا ما كان من طيئ في الفتوح الإسلامية ، وما تتابع عليها من انقسام ، هو أثر ذلك الانقسام العام ، الذي أصاب الدولة يومئذ ، فاشتركت فيه طيئ اشتراكا لم تحل دونه عصبية قبلية ، ومثلها في كل الفرق التي كانت إذ ذاك ، رجال كانوا يعملون فيها ، وقد امتلأت نفوسهم بما يعملون ، يفارق الابن أباه ، والأخ أخاه ، في سبيل نصرة مذهبه ، فطرفة بن عدي بن حاتم يترك أباه ، خارجا على علي ، ليلحق بالخوارج ، ويتبعه أبوه ، فلا يقدر عليه ، فيعود إلى علي ؛ وبينما هو في طريقه عند ساباط ، إذ لقيه عبد الله بن وهب الراسبي أمير الخوارج ، فيريد قتله ، فيمنعه طائيان ، هما عمرو ابن مالك النَّبْهاني وبشر بن زيد البَوْلاني ، ولولا أن لعدي منزلة خاصة حالت دون قتله لَقَتلوه ، ذلك أنه صاحب رسول الله ، وأنه ابن حاتم ، وأنه كان سيد طيئ ، وهو الذي يحبسه زياد في الكوفة يوما ، فلا يوجد ذو شأن فيها إلا ويذهب إلى زياد ، يلومه في حبس صاحب رسول الله ، فيطلقه زياد .

فطيئ كانت عنصرا من عناصر الأمة الإسلامية ، تحملت كل ما أصابها ، ولقيت كل ما لقيت ، وضعفت فيها روابط العصبية في سبيل الدين ، وأخذ الدين بنفوس أهلها أخذا ، ولا غرابة في ذلك ، فهي قبيلة قد تدينت قبل الإسلام ، وداخلتها النصرانية واليهودية ، وفهمت للتحالف مع غيرها معنى كان يدعوها إلى الانقسام أحيانا على نفسها والاقتتال ، كما كان ذلك في حرب الفساد وخلاف علي ومعاوية ، ورأيناها تمتنع عن لقاء أسد في حروب الرِّدة ، لما كان بينهما من حلف . ولا ريب في أن ذلك عائد إلى سمو تلك الاعتبارات المعنوية ، في نفوس قبيلة لا نشك في أن اتصالها بأمتين عظيمتين كالفرس والروم ، كان له فيها أثر .

---

(١) ابن الأثير في الكلام على المختار بن أبي عبيد . (٢) الاشتقاق .

وليس يبدو أن كثيرا من الطائيين كانوا يميلون إلى الأمويين ؛ فإن كثرتهم كانت مع علىّ، بين أنصار معتدلين، وقليل متشيعين . ومن لم يرضه من علىّ شيء كان ثائرا مع الخوارج . فلما استقام أمر الدولة الأموية، وهى الدولة العربيـة، لم نسمع فيها عن رجال طيئ كثيرا، بل كانوا كما قلت أكثر ميلا إلى علىّ ، وإنى لألمح فى طيئ فى هذا شيئا من حس ذلك الحق المقـدس ، الذى كان يحسه المسلمون من الأمم المفتوحة، التى كان فيها نظام الملك قائما . فإن فى انتصارها لعلىّ وآل بيت النبىّ، معنى دينيا يمتزج بمعنى نظامى، هو أثر من آثار تكوّن معنى الدولة فى النفوس واستقراره .

لست أذهب إلى أن هذا المعنى كان يقوم فى نفوسهم مقامه من نفوس الفرس والروم المسلمين، ولكنى أقول إن فيه شيئا من ذلك . لأنهـم خالطوهم وعرفوا نظم حياتهـم ، وحالف قوم منهم الفرس، وورثوا المناذرة فى الحيرة ، وحالف قوم منهم الروم ، وورثوا بعد ذلك فى الإسلام ملك الغسانيين، كما يقول ابن خلدون . وإن حديث عدىّ عن نفسه، الذى سبق هنا حين كان يقول : "كنت ملكا فى قومى، أعيش فى فيهم بالمرباع ... ... الخ" ليدعم هذا الرأى . ويقول زيد الخيل لعمر فى حضرة النبىّ : "أما بنو حيّة فملوكا وملوك غيرنا، ولكل رجل من حية مرباع"[1] . كما أن شيئا من الإلمـام بسيرة هذه القبيلة بعضها مع بعض فى الجاهلية ، ومع غيرها يوحى بنظام كان يغلب ـ فى كثير من الأحداث ـ على طيش الأحلام، ويحول دون أن تستعر بينها الحرب .

وإن فى حادثة لجوء حاتم إلى الحيرة لمساجدة آخر من بنى لام أصهار النعمان، وما كان على ما هو مذكور فى الأغانى، ما يدل على رزانة أحلامهم، ومحاولاتهم القضاء على ما بينهم من خلاف بوسائل التحكيم[2]، ولقد كان الاحتكام فى هذه الحادثة إلى النعمان .

وفى حادثة أخرى يقصها ابن الأثير، بين أوس بن حارثة بن لام الطائى، وكان سيدا فى قومه مطاعا جوادا، وبين حاتم بن عبد الله الكريم، وقول عمرو بن هند لكل منهما أنت أفضل أم الآخر؟ وأجابة كل منهما أن الآخر خير منه، فى هذا مثل آخر من ضبط النفس، ورزانة الحلم، يكفى لأن يفهمنا أن كثيرا من تعود النظام، واستقرار القواعد الخلقية، كان بين سادة طيئ إذ ذاك[3]. يمنح هذا بصاحبه غالبا إلى انتظام فى اختيار الحكام ، وهذا سبب ميل أكثر طيئ إلى علىّ ، وانحرافهم عن بنى أمية . وظلوا كذلك حتى كانت الدعاية للعباسيين، فاشتركوا فيها .

(١) الأغانى ج ١٦ ص ٤٦ وما بعدها . (٢) الأغانى ج ١٦ ص ٩٥ وما بعدها .
(٣) ابن الأثير ج ١ ص ٢٨٩

(هـ) طيئ والعباسيون : قامت الدعوة العباسية أول الأمر باسم رفع الظلم الواقع على آل النبي، وظل هذا شأنهم فى الدعوة لأنفسهم، حتى اصطبغت الدولة العباسية صبغة دينية، إلى جانب المنزلة السياسية ، وقام إلى جانبها الموالى وأبناء الأمم المفتوحة ، التى اعتادت النظام وتقديس صاحب الملك فيهم . و إنا لنرى من طيئ فى نقباء العباسيين الذين اختيروا لنشر الدعوة، قَحْطَبة بن شَبِيب الطائى . ومرت حوادث وأهوال ، واستقرت الدولة العباسية ، فاستخدموا الطائيين فى الدفاع عن ثغورهم ، وفى مهاجمة الخارجين فى داخل البلاد على الدولة .

فكان منهم حُمَيْد الطوسى، المعروف فى بلائه مع المأمون ، وهو حفيد قحطبة بن شبيب نقيب العباسيين السابق[1]، و إخوته الحسن وعبدالله وشبيب، وابن عمه كان عبد الحميد بن رِبْعى بن خالد ابن معدان ، وأبناه أصرم وحُمَيد أبو غانم ابنا عبد الحميد ، ومهدى بن أصرم ، ومحمد بن حُمَيد ، وأبو نصر وحميد إخوته ، الذين مدحهم حبيب ورثاهم بالقصائد المشهورة[2] . وأولاء جميعا من بنى نَبْهان بن عمرو بن الغوث بن طيئ؛ ومنهم أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى صاحب بابك .

(و) طيئ فى الحركة الفكرية : يعد ابن دريد فى " الاشتقاق " تسعة شعراء من جَديلة، وخمسا وعشرين من الغوث، وفى الحماسة غير هؤلاء من الطائيين شعراء آخرون، لا نعرف أكانوا استكثروا من الشعر أم لم يستكثروا ، فإن لأحدهم المقطوعة القصيرة، والمقطوعات الطوال شيئا، وشعرهم فيه حلاوة وسهولة، ويمتاز بالطبع، حتى ليكاد يستحيل كلاما، إلا أنه يأخذ بمجامع القلوب. فاسمع أحدهم سنان بن الفَحل يقول ، حين اختصم بنو أم الكهف من جَرْم طيئ ، مع حى من فزارة على ماء :

وقالوا قد جُنِنتَ فقلتُ كلّا ... وَربِّى ما جننتُ وما انتشَيْتُ
ولكنى ظُلمتُ فكدت أبكى ... مِن الظلمِ المبينِ أو بكيْتُ
فإنّ الماءُ ماء أبِى وجَدِّى ... و بِئرِى ذو حفرتُ وذو طويْتُ
وقبلَك رُبَّ خصمٍ قد تمالَوْا ... علىّ فما هَلِعْتُ ولا دعَوْتُ
ولكنى نَصبْتُ لهم جَبينِى ... وآلةَ فارسٍ حتى قَرِيْتُ

(١) الاشتقاق ص ٢٣٧ (٢) ابن حزم = جمهرة الأنساب .

وآسمع آخر، هو جابر بن حَرِيش الطائى :

ولقـد أرانا يا سُمَيَّ بِحائِلٍ ... نرعَى القَرِىَّ فكامِسا فالأَصفرا
فالجِزْعَ بين ضُباعةٍ فرُصافةٍ ... فعُوارِض حُوَّ الهسابِس مُقفِرا
لا أَرَضَ أكثرُ منك بَيْضَ نَعامةٍ ... ومذانِبا تَنْدَى ورَوْضًا أخضرا

ولعبيد بن ماوِيّة الطائى :

أَلا حَيِّ ليلى وأطلالَهَا ... ورَمْلةَ رَيَّا وأجبالَهَا
وأَنعِمْ بِما أرسلت بالَهَا ... ونال التحية مَنْ نالَهَا
فإنى لـذو مِرَّةٍ مُرَّةٍ ... إذا ركبتْ حالةٌ حالَهَا

ويقول الحُرَيث بن زيد الخيل، وكان قتل رجلا مسلما أرسله عمر يستقرئ أهل البادية، لأنه استقرأ ابن عم لحريث هذا، فلم يعرف، فضربه فمات. فقتل حُريثَ الرجل المسلم وجماعة من أصحابه، وهرب إلى الشام، وقال هذه الأبيات يخاطب بنت القتيل الطائى :

ألا بَكَرَ النـاعِى بأوسِ بنِ خالِدٍ ... أخِى الشَّتوةِ الغبراءِ والزمنِ المَحْلِ
فإنْ يقتلوا بالغدر أوسا فإننى ... تركْتُ أَبَا سفيان مُلتزِمَ الرَّحلِ
فلا تَجْزِعِى يا أم أوسٍ فإنـهُ ... تُصيبُ المنايا كُلَّ حافٍ وذِى نَعْلِ
قتلْنَا بقَتْلانَا مِنَ القوم عصبة ... كِراما ولَمْ نأكل بهم حَشَفَ النخْلِ
ولولا الأسَى ما عشتُ فِى الناس ساعةً ... ولكنْ إذا ما شئْتُ جاوبنى مِثْلِى

وقد ظل الشعر فيهم هو طريق التفكير، شأن العرب قبل الإسلام. ومن شعرائهم المعروفين فى الجاهلية حاتم بن عبد الله الطائى، وله ديوان مطبوع ؛ ومنهم أيضا زيد الخيل، ومنهم أبو زُبيد الشاعر النصرانى، ويقول وستنفيلد فى هامش الاشتقاق لابن دريد، " إنه أسلم " . وكان عثمان بن عفان يحب الجلوس إليه . ومنهم فى الإسلام الطِّرِمّاح الأكبر بن عدىّ، ويقول عنه ابن حزم إنه كان خارجيا صُفْرِيا ومنهم الطِّرِمّاح الأصغر بن حكيم، وديوانه مطبوع أيضا، وكان خارجيا ؛ ومنهم حبيب بن أوس . ثم جاء الإسلام وانتشرت طيئ فى البلاد المفتوحة، واستقروا بها، فشاركوا فى الحركة العملية، فمنهم القضاة فى الإسلام. فعمر بن الخطاب يولى حابس بن سعد قضاء حمص، والمختار بن أبى عُبيد الثقفىّ المتشيع المعروف، يولى على قضاء الكوفة عبد الله بن مالك الطائى .

ومنهم المحدِّثون كقَبيصة بن المهلَّب[١]، وعُروة بن مضر بن أوس[٢]، له صحبة ورواية، ومنهم عالم عظيم الذكر بالأخبار والسير، هو الهيثم بن عدى[٣].

ومنهم كان أبو مالك أبان بن الصمصامة بن الطِّرِمّاح الأكبر، راوية الأشعار واللغة، ساكنا بالقيروان بإفريقية[٤].

ومنهم فى الناحية الفنية مالك بن أبى السمح، واسمه جابر بن ثعلبة الطائى، أحد بنى ثُعَل. وكان مغنيا، أخذ الغناء عن جميلة ومعبد، وعُمِّر حتى أدرك الدولة العباسية، وكان منقطعا إلى بنى سليمان بن على، ومات فى خلافة المنصور. وكان مالك رائع الغناء، واسع الأفق، يتلقط ألحانه من كل مكان، وأوجد طريقة جديدة فى الغناء غير طريقة أستاذه[٥].

١٠ — نسبة أبى تمام فى طيئ

إلى هذه القبيلة الوثنية النصرانية اليهودية المسلمة، ذات الاتصال الوثيق بالفرس والروم، فى الجاهلية والإسلام، والتى كان منها أولئك الذين ذكرت من الشعراء والعلماء والمحدثين ورواة الأخبار وأصحاب الفن — إلى هذه القبيلة ينسُب كل المؤرخين أبا تمام.

فالصولى فى كتابه "أخبار أبى تمام" يقول: هو حبيب بن أوس الطائى صَلِيبة. ويذكر صاحب الأغانى[٦] أنه من نفس طيئ صليبة. وابن حزم الظاهرى فى جمهرته يقول عنه إنه من ولد الحارث بن طيئ، والحارث بن طيئ على ما يذكر، كان يقيم فى مَهْرة بن حَيْدان، وكانوا أخواله، نزل فيهم إذ رحل أبوه وأخواه. والرحلة التى يتحدث عنها هى رحلتهم إلى أجأ وسلمى.

ومهرة بن حيدان بطن من قضاعة كبير، ينقسم إلى قبائل[٧]. أما كتب الأدب فمجمعة على أنه طائى، حتى إنهم ليقولون أحيانا الطائى ويسكتون، فيفهم أنهم يقصدون أبا تمام. وينقل الجاحظ فى كتابه المحاسن والأضداد عن الطائى. ويقول عنه المبرد الطائى، وكذلك ابن عبد ربه وابن رشيق والسمعانى وصاحب تاريخ قزوين، ويلقبه الطبرى وابن الأثير بالطائى، وكل ما يحيط بأبى تمام لا يكاد يدع مجالا للشك فى أنه من طيئ. إلا أن هناك أمرين نقف عندهما شيئا:

أولهما: ما نقله الصولى فى كتابه[٨]، قال: "وقال قوم هو حبيب بن تدوس النصرانى، فغُيِّر أوسا".

---

(١) جمهرة الأنساب. (٢) نفسه. (٣) الاشتقاق ص ٢٣٣ (٤) جمهرة الأنساب.
(٥) الأغانى ج ٤ ص ١٦٦ (٦) ج ١٥ ص ٩٦ طبعة السعادة. (٧) اشتقاق ابن دريد ص ٣٢٢
(٨) أخبار أبى تمام، ورقة ١٢٠

وهذه العبارة ما كانت تفيد شيئا . فإن نصرانية رجل من طيئ لا تستغرب لو لم تقترن إليها عبارة أخرى، مذكورة فى كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، فى ترجمته أبا تمام . والعبارة هى : "وذكر أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدى ، فى كتاب الموازنة بين الطائيين ما صورته : والذى عند أكثر الناس فى نسب أبى تمام، أن أباه كان نصرانيا من أهل جاسم، قرية من قرى دمشق، يقال له تدوس العطار، فجعلوه أوسا . وقد لفقت له نسبة إلى طيئ ، وليس فيمن ذكر فيهما من الآباء من اسمه مسعود، وهذا باطل ممن عمله ، ولو كان نسبه صحيحا لما جاز أن يلحق طيئا بعشرة آباء . قلت (ابن خلكان) : وذكر الآمدى هذا فى قول أبى تمام :

إنْ كان مسعودٌ سَقَى أطلالَهم فيضَ الشئونِ فلستُ مِنْ مسعودِ

وقد سقط فى النسب بين قيس وذفافة ستة آباء . وقول أبى تمام "فلست من مسعود" لا يدل على أن مسعودا من آبائه . بل هذا كما يقال : ما أنا من فلان ، ولا فلان منى . "

وقبل أن نناقش هذه العبارة الأخيرة، يجب أن نذكر عبارة الصولى السابقة، وكيف أن نصرانية أبيه لا تتعارض مع طائيته ، فقد رأينا من قبل كيف كانت النصرانية فى طيئ ، وكيف بقيت فيهم بعد الإسلام . ويجب أن نذكر إلى هذا أيضا ، أن الصولى لا يؤمن بهذه القضية، لأنه ذكرها فى معرض من معارض الشك . ذكرها فى كلام من عاب أبا تمام ، ويجب أن نذكر أيضا أنه لم يُبْدِ شكًّا فى طائية أبى تمام، بل قطع بها، فقال : هو من طيئ صليبة .

فعبارة الصولى لا تقدم ولا تؤخر فى موضوعنا . ولكن عبارة الآمدى كما ينقلها ابن خلكان ، هى التى تثير ضجة فعلية حول نسب أبى تمام ، إذ العبارة كما فى ابن خلكان صريحة فى أن أناسا كانوا يتهمون أبا تمام فى نسبه إلى طيئ .

والذى أريد أن أوجه النظر إليه، هو أن العبارة تنقسم إلى قسمين : قسم من كلام الآمدى، ينتهى عند قوله : " بعشرة آباء " ؛ وقسم من كلام ابن خلكان، ويبتدئ عند قوله : " قلت : وذكر الآمدى ... ... الخ " . وينتهى عند : " ما أنا من فلان ولا فلان منى " .

وكلام الآمدى قضية تستند إلى دليلين :

أما القضية فهى : " والذى عند أكثر الناس فى نسب أبى تمام ... ... وقد لفقت له نسبة إلى طيئ " وأما الدليلان فأولهما أن نسبه، ولم يذكره، يلحق فيه طيئا بعشرة آباء، وهذا غير جائز . وثانيهما : أنه يقول : " فلست من مسعود " . وليس فى نسبته أب اسمه مسعود .

فيرد عليه آبن خلكان بما يهدم هذين الدليلين، بعد أن يشير إلى مكان العبارة من كتاب الموازنة، فيقول له : ١ — أما أن آباءه عشرة فذلك ليس بصحيح ، إذ سقط من هـذه النسبة ستة آباء ، بين قيس وذفافة، وهى إشارة ضمنية إلى أبوين من آباء أبى تمام، قيس وذفافة، فيجب أن نذكرها، وفيها أيضا موافقة من آبن خلكان على أن آباء أبى تمام يجب أن يكونوا ستة عشر، ليصل إلى طيٌ .

٢ — أن الآمدى لم يصب فهم عبارة أبى تمـام : " فلست من مسعود " .

فابن خلكان يقول له مامعناه : إن عبارة أبى تمـام لاتفيد ذلك، وأسلوب العرب لا يحتم أن يكون مسعود أبا من آباء حبيب .

ومعنى ذلك أن الآمدىّ لم يعرف هذا الوجه من وجوه تأويل العبارة .

* * *

وقد كان الجدال يستقيم على هذا و ينتهى بالارتياح إلى ما قال آبن خلكان، لولا ما هنالك من أشياء : (أولها) أن آبن خلكان الذى يتخذ دليله على صحة نسب أبى تمام آستيفاء هذا النسب العدد الذى أوجبه الآمدى فى عبارته، وهو ستة عشر أبا لأبى تمام . آبن خلكان حين يذكر نسب أبى تمام لا يعد بينـه و بين طيٌ إلا ثلاثة عشر أبا . فالنسبة عنده هكذا : " أبو تمـام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشجّ بن يحيى بن مروان بن مُرّ بن سعد بن كاهل بن عمرو بن عدىّ بن عمرو آبن الغوث بن طيٌ " .

(وثانيهـا) أنه يذكر فى تفصيل حجته السابقة سقوط ستة آباء بين قيس وذُفافة ؛ فإذا نظرت إلى النسبة على ماهى فى كتابه لم تجد ذفافة هذا .

(وثالثهـا) أن آبن خلكان يقول فى كلامه على نسب أبى تمام : " وقد ساق الخطيب أبو بكر فى تاريخ بغداد نسبه، وفيه تغيير يسير " .

أما هذا التغيير الذى يصفه آبن خلكان باليسير، فهو على ماسيأتى، مع ترك ما آتفقا فيه فى أوّل النسبة وآخرها . مقابلا كل اسم بمـا عند الآخر .

عند آبن خلكان : آبن يحيى بن مروان بن مر بن سعد ... ... الخ

عنـد الخطيب : آبن يحيى بن مزينا بن مهم بن ملحان بن مروان بن ذفافة بن مُر بن سعد ، ثم تستقيم النسبتان بعـد ذلك على صورة واحدة حتى طيٌ ، ولا إخالك تظن أن هـذا الفرق هو

التغيير اليسير الذى أراده ابن خلكان . والفرق إذا بلغ ما بين الثمانية والأربعة لم يكن فرقا يسيرا ، فبين يحيي ومروان عند ابن خلكان سقط ثلاثة آباء ، وبين مروان ومُر سقط ذفافة ، وهو الاسم الذى يفهم من كلام ابن خلكان أنه ذكره فى نسب أبى تمام .

ونستطيع أن نخرج من هذه الآن بأن أسماء من أسماء آباء أبى تمام كما كتبها ابن خلكان قد سقطت فى النقل عنه . وهو أمر يجب أن ينبهنا إلى التريث فى تقويم ما فى الكتاب كأثر حقيق كتبه ابن خلكان .

فإذا أضفت إليه ما يأتى ، أحسست أن الباحث أكثر حاجة إلى التريث ، و إبصار موقع قدميه . قد رأينا فى كلام ابن خلكان ما يفهم منه أن الآمِدِىّ كان يرى أن مسعودا أحد آباء أبى تمام ، وأنه ذكر ذلك فى الكلام على بيته :

* إن كان مسعودٌ سَقَى أطلالَهم *

فإذا جئت إلى الآمدى[1] وجدت ما يأتى :

قال أبو تمّام :

إنْ كان مسعودٌ سَقَى أطلالَهم ... فَيْض الشئون فلستُ مِن مسعودِ
ظَعَنوا فكان بُكاىَ حولا بعدَهم ... ثم ارعوَيْتُ وذاك حكم لَبِيدِ
أَجْدِرْ بجمرةِ لَوْعةٍ إطْفاؤها ... بالدمع أنْ تزداد طُولَ وَقُودِ

قوله : إن كان مسعود ... يعنى مسعودا أخا ذى الرمة ، ولا يعرف له بيت واحد بكى فيه على الديار . وهذا من معانى أبى تمام الغامضة ، التى يسأل عنها .

وما زلت أرى الناس قديما يخبطون فيه ؛ و إنما ذكر مسعودا لأنه كان ينهى أخاه ذا الرمة عن البكاء على الديار ، وذلك قول ذى الرمة :

عَشِيّةَ مسعودٌ يقولُ وقد جرَى ... على لِحيتِي مِن واكِفِ الدمعِ قاطِرُ
أَفِي الدار تبكِي إذ بكيْتُ صَبابةً ... وأنت امرؤ قد حَنّكتكَ المعاشِرُ

فأراد أبو تمام : إن كان مسعود الذى أنكر على ذى الرمة البكاء ونهاه عنه ، قد رأى أن البكاء أحسن بعد أن كان عنده غير حسن ، فلست منه ؛ وذلك كقول القائل : إن كان حاتم قد شح فلست منه ، أى : إن كان بعد كرمه وجوده قد رأى أن البخل حسن ، فلست مقتديا به ، وكان هذا عند

(١) ج ٢ ص ٧٠ نسخة تيمور المخطوطة بدار الكتب المصرية .

أبي تمام أبلغ من أن يقول : إن كان غيلان سفى أطلالهم ، يعنى ذا الرمة ، فلست منه . وهذا أيضا من استقصاء أبي تمام ، ومبالغته فى المعانى ، التى يخرجها إلى التعمية والانغلاق . وقوله : «وذاك حكم لبيد» يريد قول لبيد :

إلى الحول ثم اسمُ السلامِ عليكما ومن يَبكِ حولا كاملا فقد اعتذرْ

وقوله :

أجِدْ بحمرةِ لَوعةٍ إطفاؤها بالدمع أنْ تزداد طول وُقُود

غلط بيّن ، لأنه أتى فيه بما يخالف مذاهب أهل الجاهلية والإسلام والأمم كلها ... ..." وهكذا يمضى ثم ينتقل إلى غيره . ولم يقل شيئا فى كل كتابه عن مسعود غير هذا . فكأن كتاب ابن خلكان على حالته التى بين أيدينا الآن ، قد ظلم الآمدى ، ونسب إليه ما ليس من قوله . ولو لم يكن هذا التناقض الصريح بين ما قاله الآمدى ، الذى هو أول من بيّن الغموض فى هذا البيت كما يبدو من قوله ، و بين ما قاله ابن خلكان ؛ ولو لم يكن الاضطراب الذى سبقه ، لقلت : عبارة كتبها الآمدى ، ثم سقطت فى نقل كتابه إلينا .

والذى أستطيع أن أفهمه من هذا هو أن كتاب ابن خلكان لم ينقل إلينا نقلا أمينا ، وأن خطأ قد وقع فى هذا الموضوع نفسه ، أدى إلى اختلاط كلام الآمدى بكلام قوم آخرين ، يتهمون أبا تمام فى نسبته .

وعندى أن ما كان قاله ابن خلكان فى كتابه ، إنما كان على نحو هذا : وهو أن جماعة من الناس اتهموا أبا تمام بأنه ليس طائيا ، واستدلوا على ذلك بأن آباءه عشرة فقط ، مع أنه يلزمه ستة عشر لكى يصل إلى طيئ ؛ وأنه كان له أب يدعى مسعودا ، ليس مذكورا فى نسبته ، مع أنه مذكور فى شعره .

ثم رد ابن خلكان على هذين الدليلين بما سمعناه يقوله ، مستندا فى ذلك إلى تفسير الآمدى السابق الذكر للبيت ؛ وجاء ناقل الكتاب فخلط فيه لأمر ما ، حتى صار إلى صورته التى هى بين أيدينا .

ونخرج من ذلك كله بأن الآمدى لم يتهم أبا تمام ، كما لم يتهمه الصولى ، وأن ابن خلكان دافع عنه ، وحطم حجج خصومه .

كما أنى لم أسمع من خصومه من يهجوه ويتهمه بهذه التهمة ، إلا مخلّد بن بكار الموصلى ، وقد كان مخلد بالموصل هجا أبا تمام آخر أيامه ، و إبان عزه واشتهاره ، وكأنه كان يريد بهجائه الشهرة ، فلم يعبأ به أبو تمام ؛ ولقد كان احتقار أبى تمام له ثقيلا ، أثار ضغنه ، حتى هجاه بعد موته .

قيل لأبي تمام : قد هجاك مخلد فلو هجوته ؟ قال : الهجاء يرفع منه . قيل أليس هو شاعرا : قال : لو كان شاعرا ما كان من الموصل . يعنى أن الموصل لم يخرج شاعرا[1] ...

وأول شعر هجا به مخلد أبا تمام، هو كما يروى الصولى عن غلام مخلد :

أنت عندى عربىُّ الـ ـ ـأصلِ ما فيكَ كلام
عـربىٌّ عـربىٌّ أجَـيّ ما تُـرام
شَـعْرٌ نفذيْك وساقيـ ـك خُزامىَ وثُمام
وضلوع الشِّلْو من صد ـرك نَبْـع وبَشام
وقَذىَ عينيك صَمْـغٌ ونواصـيك ثَغام
لو تحرّكتَ كذا لاذ ـ ـجفلتْ منك نَعام
وظِبـاءٌ مُخْصَـباتٌ ويَرابيـعُ عِظام
أنا ما ذنبى إن خا ـ ـلفنى فيـك الأنام
وأتتْ منكَ سَجايا نَبَـطيّات لِئـام
وقفًـا يحلف أنْ ما عَرّقتْ فيك الكرام
ثـم قالوا جاسمـىّ من بنى الأنباط خام
كَذبوا ما أنت إلّا عـربى لا تُضام
بيتُه ما بين سَلْمَى وحوالَيْه سـلام[2]
وله من إرث آبـاءٍ قِسـىٌّ وسِهام
ونخيـل باسـقات قد دنا منها صِرام[3]
أنت عندى عـربى والسّـلام عـربى

وهجاء مخلّد فيه يجرى فى هذه السبيل، ذكره الصولى فى كتابه "أخبار أبى تمام"[4] .

(١) الصولى : أخبار أبى تمام، مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية — الورقة ١١٤ (٢) السلمة كفرحة : الحجارة. جمعها سلام ككتاب (المحيط) . (٣) أصرم النخل : حان له أن يصرم، وصرامه، وبكسر فيقال أيضا صرامه : أوان إدراكه (المحيط) . (٤) الورقات : (١١٤ و ١١٥ و ١١٦) .

ولكن مجاء خصم كهذا لا يصح أن يؤخذ مأخذ الحجة على إجماع المؤرخين. فلقد كان خصومه يركبون فيه أشنع ما يركب. يقول الصولى[١]: "وقد رأيت أعزك الله بعض هؤلاء الجهلاء يصحف أيضا على أبى تمام، ثم يعيب عليه ما لم يقله أبو تمام قط ...". وينقل[٢] عن على بن الجهم أنه لعن دِعبلا ... وقال: كان يكذب على أبى تمام، ويضع عليه الأخبار.

لخصوم أبى تمام كانوا يعمدون إلى كل ما يمكن به النيل منه، فيفعلونه؛ ويكفى أن تعرف أنه كسف خمسمائة شاعر فى أيامه، فكانوا لا ينالون معه درهما حتى مات، فتقاسموا جميعا ما كان يأخذه، حتى تقدر حسد هؤلاء له واضطغانهم عليه، فليس غريبا أن نجده متهما بالكفر عند قوم، وضعف العقيدة عند آخرين، وعدم العربية عند غيرهم، إلى غير ذلك من ضروب الاتهام والتجنى.

وأما أن أباه كان حمارا أو عطارا، فذلك إن صح ما لم يقل أحد إنه كان صناعة من الصناعات المقصورة على جنس من الناس دون جنس. وأما أن أباه كان أوسا أو تدوسا، وأما أن اسمه يشبهه (Theodose)[٣] فيكون اسما يونانيا عُرّب، أو هو عربى اشتق من داس يدوس، أو ارتجل كما ارتجل غيره، فذلك لا يبلغ بقضية أبى تمام شيئا، بل ربما كان مما يستأنس به لتصحيح نسبه فى طيئ؛ إن كان الاسم يونانيا. فقد بينت قبلا أن طيئا كانت وثيقة الصلة بالروم فى الشام، وكيف كانت تجاورهم، وكيف كانت تدين بدينهم جماعات منها، حتى بعد الإسلام، فلا غرابة فى أن يأخذوا أسماء من أسمائهم، فيعربوها.

وإنك لتجد فى صدر كتاب الاشتقاق لابن دريد، أن الذى حداه "على وضع كتابه، أن قوما يطعنون على اللسان العربى، وينسبون أهله إلى التسمية بما لا أصل له فى لغتهم، وإلى ادعاء ما لم يقع عليه اصطلاح من أوليتهم". ثم يحاول فى كتابه إرجاع كل اسم إلى أصل عربى، إشباعا لعصبية عربية. وهو يريد أن ينفى عن الخليل بن أحمد رواية أنه سأل أبا الدُّقيش ما الدقيش؟ فقال: لا أدرى، إنما هى أسماء نسمعها ولا نعرف معانيها.

وإن عصبية أبى تمام لطيئ لتُرى واضحة فى كل شىء. فى نحْوه، تراه مُلمًّا بكل ما نعرف من لهجات طيئ، كما ذكرت فى مكان آخر، وفى اختياراته. ففى الحماسة الكبرى تراه يختار لما يزيد على خمسين طائيا. وفى الوحشيات لا تعدّ صفحات قلائل حتى تعثر على شعر لطائى، وفى ممدوحيه.

(١) المصدر السابق، الورقة ٢٨ (٢) المصدر نفسه الورقة ٢٩ (٣) صاحب هذا الرأى هو كاتب مادة أبى تمام فى دائرة المعارف الاسلامية.

وخلاصة القول عندى أن أبا تمام عربى طائى، وأن هذه التهمة فى نسبه إنما أتته كما قلت عن طريق خصومه، الذين حاولوا النيل منه فى كل شىء، حتى فيما لا يجوز فيه التهمة من فنه وشعره المسائل بين أيدينا.

بل إنك لترى بعض هؤلاء الخصوم يستعينون عليه، حين تعوزهم الوسائل، بنسبته فى طيئ، ففى الموازنة فى ذلك النقاش البديع الذى صوّره لنا الآمدى تصويرا دقيقا لخصمين يتجادلان فى قيمة شعر أبى تمام وشعر البحترى، والذى است أتردّد كثيرا فى القول بأنه تصوير من عنده لتلك الخصومة، التى كانت تدور فى عصره حول هذين الشاعرين، إلا أنها تستند على أصول حقيقية؛ فى ذلك النقاش: إذا قال المنتصر لأبى تمام إن البحترى قد أقرّ فى الشعر الذى رثى به أبا تمام بتفوّقه، وفضله على غيره؛ ردّ عليه صاحب البحترى بقوله: "ولم لا يفعل البحترى ذلك وقد كان هو وأبو تمام بعد اجتماعهما وتفارقهما متصافيين، يجمعهما النسب والطلب والمكسب، ولم يك فى زمانهما شاعر مشهور يفد على الملوك، ويجتدى بالشعر، وينتسب إلى طيئ سواهما".

فهذا خصمه يعترف له بأنه كان من طيئ، ولا يطعن عليه فى نسبه.

كما أن لأبى تمام شعرا كثيرا ينتسب فيه إلى طيئ، لا يجرؤ على قوله إلا صادق النسب فى قومه، ولست أحصيه هنا، ولكنى أذكر أمثلة منه، فهى كثيرة فى شعره. يقول حين يمدح يمنيا:

وإنّى ومدحى مَذْحِجَ ابنــة مَذْحِج ... لكالمُفعِمِ الحوْضَ الذى أنا واردُهْ

وأكْيِسُ بمُجْدٍ عاد فيــه نــوالُهُ ... وشاعرِ قــومٍ عُدْنَ فيــه قصائدُهْ

ويشتد به الضيق، ويلح عليه الفقر، وكثيرا ما كان يلح عليه لسرفه، فيهتف بمحمد بن يوسف الطائى هذا الهتاف:

تقرّبتُ بالقــربَى إليــكَ ومَعْصِمٍ ... من العَدلِ من دونِ القصيدِ المقصَّدِ

ويقول وهو فى مصر لما ضاق فى وجهه الرزق، وانحطم أمله، بعد أبيات باكية:

ولــو أننى أعطيتُ بأسى نصيبَــهُ ... إذن لَأخذتُ الحزم منْ مأخذ سهْلِ

وكانَ ورائى من صَريمــةِ طيئٍ ... ومَعنٍ ووهبٍ عن أمَامى ما يُسلِى

فــلَم يكُ ما جرّعتُ قومى من الأسَى ... ولم يكُ ما جرعت نفسى من الثُكلِ

وفى هذه المواقف جميعا تنبو النفس عن الادعاء والكذب ، إما خوف الزجر كما هو فى الأول والثانى، وإما لأن هـذا الادعاء فى فترة من فترات الحزن التى تصفو فيها النفس، شيءٌ أدعى إلى سخرية صاحبه من نفسه .

ولكنى بعد هذا كله لا أرتاب فى أن فى أبى تمام عنصرا أجنبيا، إلا أنه فى الثقافة وليس فى الدم. وإذا كان أبو تمـام قد افتتح عصرا فى الشعر العربى، وطفَر به طفرة رائعـة، فما ذلك بغريب على عربى. ولقد طغت علينا فى عصرنا هذا موجة ذات أصل عند ابن خلدون، تلك هى محاولة إرجاع حركة القيام بكل عمل ضخم فى مدنية العرب، إلى أعجمى من الأمم التى لابستهم، وعاشت تحت سلطانهم. ولست أومن بهذه النظرية، فإن نظرة عامة تلقى على تاريخ العرب، ترينا أن الأجنبى كان يبدأ بأول خطوة، فلا يلبث العربى أن يتعلم منه، ثم يخطو على أثره، ثم يسبقه، ويسوده، فإذا به المجلِّى فى فنه، البالغ ما يطمح إليه الطامحون . ولقـد أثبتت العرب أنهـم تلاميذ نجباء، إذا علموا عملوا فى جرأة لا يحلم بها الدخيل عليهم ؛ وأنهم إنما كانوا فى حاجة إلى أساتذة؛ وإن العرب إن لم يكن كل العلماء الذين كتبوا فى لغتهم منهم، فقد كان رءوس هؤلاء العلماء منهم .

فأبو النحو والعروض الخليل بن أحمد؛ وسيد الفقهاء الشافعى ، ولات الشعر ومناته وعزاه ، كما يقول ابن الأثير فى المثل السائر : هم أبو تمام الطائى، وأبو عُبادة البحترى، والمتنبى؛ ومن العرب بعد ذلك أبو العلاء المعرّى .

ولقد عاصر الكندى الفيلسوف أبا تمـام، واجتمع معه فى مجلس أحمد بن المعتصم .

إن العرب لظروف سياسية طارئة قد شغل معظمهم عن الاشتغال بالعلوم؛ أما من آشتغل منهم بعـلم أو فن، فقد برز فيـه . وليس لنا أن نطالب أمة تجمع شـتات الأجناس من الخلق أن يكون علماؤها جميعا عربا، لأن لغتها العربية، ولأن الدين أرسل به عربى . فإن معظم هذه الأمة لم تكن عربا خالصة . فاذا تحققت بهـذا طبيعة الأشياء ، فكان أغلب علماء أمة أغلبها من الأعاجم عجما ، لم يكن معناه آتهام العرب بالعقم العقلى ، وعدم قبول عقلهم للبحث العلمى . وليس لنا بعد هذا أن ننفى عنهم العلم ، حتى ليدعونا ذلك إلى التشكك فى نسب العربى النابغ ، حين تعوزنا الحجة لتطبيق نظرية أصلها الخطأ ، ومثيرها العصبية .

١١ — أشهر مشاهير طيئ وبطونها حتى زمن النبيّ

(عن كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لدى برسفال)